نقش على خاصرة الياسمين

رواية

منى العساسي

نقش على خاصرة الياسمين

رواية

منى العساسى

الأدهم للنشر والتوزيع

2019

نقش على خاصرة الياسمين

رواية

منى العساسى

الطبعة الأولى: 2019

رقم الإيداع: 2019/16625

الترقيم الدولى: 978-977-748-288-2

دار الأدهم للنشر والتوزيع

١٥ شارع عبد القهار من شارع الأصبغ - حدائق الزيتون - القاهرة - مصر

ت: 01023186228 - 01126656505 - 01227341893

e mail: fares_khedr@yahoo.com

دار الأدهم للنشر والتوزيع

المدير العام: **فـارس خضـر**

المخرج المنفذ: **حسـام عنتر**

إهـــداء

إلى أمي رحمها الله:

ليتنى أستطيع على قدر اللفهة المجهضة في جوفي أن أستحضرك داخلي.. أن أراك.. أن ألمسك.. أن أضمك أن أحاورك أو أشاجرك حتى..

ليتني أستطيع أن أستدعي البكاء فأبكي، فأنا إلى حد الإصابة بنوبة قلبية منهكه، منهكه من الهروب، من التمثيل، من الركض إلى مالا توقف..

الفصل الأول

مساء يعجُّ بالفوضى والضجيج، الجميع مشغول بما سيرتديه الليلة.

- أمي أين مشبك شعري؟

- حبيبتي عليكِ أن تتركي شعرك مسدلًا على كتفيك، سيطل وجهكِ من بينه كأنه القمر، فسحر القمر يكمن في عتمة محيطه.

- أمي أنتِ تعلمين أني لا أفضِّل شعري مسدلًا، لا أجيد التعامل معه هكذا يربكني.

- أنتِ عنيدة جدًّا يا الياسمين ولا تستمعين لأحد، افعلي ما ترينه مناسبًا. اذهبي ستجدين مشبك شعرك في الدرج الأيمن من تسريحتك.

-حسنا يا أمي سأذهب لأستعد وأرتدي ملابسي...

كنت قد اخترت فستانًا أسود طويلًا بظهر مكشوف، ونعلًا نبيذيًّا مقصبًا، وقررت ارتداء عقد بسيط ذي ياقوتة حمراء صغيرة سيحتضنها هذا التجويف الخفيف أسفل عنقي. كنت دائمًا أعتمد مكياجًا خفيفًا، اخترت أحمر شفاه نبيذيًّا أيضًا وكحلًا أسود. ارتديت

فستاني ووقفت أمام المراة أضع مكياجي وأصفف شعري وغرّتي التي كست جبيني، حين وقعت عيناي على نفسي في المرآة أعجبت بها، ودار حوار صامت في نفسي حين أخذت أتساءل بتعجب:

ما الضررُ لو تركت شعري هكذا هذه المرة!؟

ما أسوأ شيء يمكن أن يحدث؟

في النهاية ليس لدي من يهتم لأمري في هذا العرس غير أن حضوري واجب إلزامي، وغيابي تقصير اجتماعي خطير من وجهة نظر أمي.

قررت أخيرًا تركه مسدلًا. ارتديت نعلي وخرجت في اتجاه غرفة أمي، سأضع من عطر الياسمين خاصتها فهو من نوع فاخر جدًّا وله رائحة قوية وجذابة، كانت أمي تحب هذا العطر كثيرًا ولا تستبدله أبدًا. وضعت العقد الذي كنت قد اخترته سابقًا وذهبت لأمي أتفقد رأيها بمظهري.

نظرت لي أمي فاتحة ثغرها في دهشة: يا إلهي أنتِ تلمعين كنجمة.

ابتسمت لها على استحياء ومازحتها قائلة:

- أمي هل تفكرين بصيد عريس لي الليلة؟

بادلتني الابتسامة وقالت: ما الضرر في ذلك حبيبتي؟! فقد كبرتِ بما يكفي لنجد لكِ زوجًا مناسبًا

ابتسمت لها بدلال وقلت: ما زلت طفلتك المدللة يا أمي أو بالأحرى

طفلة أبي المدللة فأنتِ لا تدلليني لكن لا بأس من تقبيلك فأنتِ كحلويات الشام لا أحد يستطيع مقاومتك وإلا ما سقط أبي المسكين في صاحبة العيون العسلية والشعر البني.

- امشي أيتها الشقية ما كان أبوكِ ليحظى بمثلي إلا أن النصيب قد أوقعني به. ها هو أبوكِ قد أتى سأشكوكِ له.. أترى ابنتك يا محمد تقول إنك سقطت في وكأني لم أكن أهلًا لك!

- أنتِ حبيبة الروح يا فاطمة هل كنتُ لأحظى بتلك الجميلة إن لم تكوني أنتِ أمها!

- فداكَ نفسي يا محمد فأنت حبيب العمر.

قاطعتهما مازحة: يا أبي أجبني بصدق من أجمل أنا أم أمي؟

- أيتها الماكرة تريدين الإيقاع بي اذهبي فالسائق سيأتي خلال ربع ساعة تفحصي نفسك وأغراضك جيدًا حتى لا تنسي شيئًا كالعادة.

أجبته برقة ودلال: حسنًا يا أبي سأذهب. والتفتُّ خارجةً من الغرفة حين قاطعني صوت أبي: يا الياسمين اقتربي.. أين قُبلتي!؟

انحنيت لأقبله فاستوقفني هامسًا: أنتِ من سرقتِ القلب جملةً يا ابنة قلبي قبل ظهري.

همستُ له: حسنًا يا أبي أعلم هذا، كنت أمزح فقط.

وطبعت قبلتي على خده الأيمن وخرجت قاصدة غرفتي.

ألقيت نظرة سريعة على إطلالتي بالمرآة ووضعت أحمر الشفاه والكحل وفرشاة الشعر في حقيبتي الصغيرة، وارتديت عباءتي، وألقيت غطاء رأس أسود على شعري ووجهي وخرجت قاصدة أمي لأخبرها أني انتهيت فإذا بها تخبرني أن السائق ينتظر بالأسفل وأنَّ عليَّ أن أذهب إليه.

أومأت برأسي حسنًا سأذهب. نزلت الدرج بحذر فلم أكن أجيد السير بالنعل المقصب فأنا حديثة عهدٍ به وصلت السيارة وأخذت مكاني بها وأزحت غطاء الرأس للخلف وشهقت شهقة منتصر فقد وصلت بسلام. لم يطل الانتظار فقد أتت أمي سريعًا، دخل أخواي من الباب المواجه للمنزل والتفَّت أمي لتدخل من الجهة الأخرى للسيارة، وانطلق السائق قاصدًا قاعة الحفل، وأخرجت أمي مرآتها وأخذت تتفقد مكياجها ومظهرها، فقد كانت تحب المكياج كثيرًا وتسرف في استخدامه في السهرات والحفلات وتقضي وقتا كبيرًا أمام المرآة.

أمَّا أنا فلم يكن يستهويني المكياج مطلقًا، ولم أكن أحب الثرثرة أيضًا فعادةً أملك ما أقرأه، رواية أو مجموعة قصصية قصيرة أو ديوان شعر لكن هذه المرة لم يكن هناك شيء.. كانت هناك موسيقا هندية تنبعث من السماعة الأمامية للسيارة على ذوق السائق، ربما كان يداوي بها شعوره بالغربة وحنينه لوطنه. لم يكن الطريق طويلًا وصلنا أسرع مما كنت أظن، وقفت السيارة أمام ممر طويل يؤدي إلى الساحة الأمامية للقاعة، كانت مساحة واسعة تفصل بين مبنيين

أحدهما به باب مزخرف كبير جدًّا وجميل وتحيط به الأضواء الملونة من كل اتجاه، والآخر كان مبنًى خاصًّا بالحمامات والمغاسل، كان مبنًى جميلًا أيضًا تفوح منه رائحة العطور والبخور، بواجهة رخامية وباب خشبي كبير ومزخرف، كانت الساحة محاطة بالأشجار الملتفة بجانب الحوائط من جميع الاتجاهات تتوسطها مقاعد رخامية سوداء جميلة ونظيفة لها ملمس ناعم ولامع، تتلألأ فيها الأضواء الملونة المعلقة فوقه على الأشجار والجدران كأنها النجوم.

دخلنا من باب القاعة الأنيق لنجد العاملات منتشرات في كل مكان، أخذت منا إحداهن العباءات والأحجبة، وأعطتنا بطاقة مغلَّفة مطبوع عليها رقم مذهَّب بخط كبير وجميل، وضعتها مباشرة في حقيبة يدي حتى لا أفقدها، حيث إنها السبيل الوحيد لاسترداد أغراضنا مرة أخرى أو سنضطر لانتظار إلى آخر الحفل حتى يخرج كل المدعوين ويستردون أغراضهم والصندوق الذي سيتبقى سيكون لنا. دخلنا القاعة وكانت أم العروسين والنساء من قرابتهن في استقبال الضيوف، سلَّمنا وباركنا لهن العرس وتمنينا السعادة والتوفيق لكلا العروسين، وبعدها سلمتنا أم العروس لإحدى بناتها لتدلَّنا على طاولة فارغة. كانت القاعة فارهة وجميلة جدًّا، الطاولات مصفوفة بشكل جميل وأنيق، طاولات الضيافة في كل مكان عليها ما لذ وطاب من المشروبات الحارة والباردة والحلويات الشرقية والغربية والمكسرات والتمور بمختلف أشكالها وألوانها والشوكولا الفاخرة والدونات

والفطائر المالحة، وهناك الصبَّابات اللاتي يدرن في كل أنحاء القاعة بالمشروبات ويقدمن للضيوف مأكولات الضيافة.

كانت القاعة جميلة جدًّا وملفتة ويظهر بها معالم البذخ الشديد، ولم يكن ذلك مستغرب فقد أصبحت حفلات الأعراس ميدانَ مبارزة بين العائلات السعودية حيث تخطَّت تكلفة حفلات الأعراس للطبقة المتوسطة أكثر من خمسين ألف ريال سعودي! كان الضجيج يعمُّ المكان وصوت الأغاني الخليجية يرج أركان القاعة.

شعرت بالاختناق من هذا الصخب أردت الخروج للتنفس، غير أن أمي لم تسمح بذلك إلا بعد فيض من الأسئلة:

الياسمين أين ستذهبين؟ لماذا أنتِ ذاهبة؟ تصرفي بلياقة أرجوكِ لا تحرجيني...

الأمر الذي دفعني للردِّ عليها بحدة وضيق: أمي لا تحاصريني رجاء. ولكي يطمئن قلبك سأذهب إلى الحمام وسأعود سريعًا.

اندفعتُ بين الطاولات أبحث عن طريقٍ يخرجني من هذا الجو المختنق، أخيرًا وجدتُ بابًا جانبيًّا مؤديًا للساحة الخارجية، شهقت شهقة الخارج من قبر، وقفتُ أمام الممر الخارجي عاقدةً يدي تحت صدري والأخرى تحرك شيئًا دقيقًا من شعري خلف عنقي، كنت على يقين أنه لن يلحظ أحد وجودي في هذا المكان إلا من يتعمَّد النظر

والتدقيق، ولم يكن هذا الطبع السائد لأحد فهي تعتبر نقيصة وعيبًا في حقه.

كانت سيارات المدعوين خلف بعضها، لم يكن يستوقفني أحد ناظرة إلى اللاشيء حيث لا وجهة محددة لبصري، فجأة وجدت أحدهم يحدق فيَّ ويمشي باتجاهى مباشرة..

حوار في نفسي: ما هذا!؟ من هذا!؟ لماذا يتجه نحوى!؟

قلبي يدق كطبول حرب في صدري. يا إلهي شفاهه تتحرك، هو يتحدث...

أين صوته!؟ لماذا لا أسمعه!؟

لا أستطيع قراءة شفاهه، يداه تتحركان باتجاهي..

أين قدماي!؟ لماذا لا تطيعني وتتزحزح للخلف قليلًا!؟

قبض بكلتا كفيه على ذراعي.. يده صغيرة رقيقة، ملمسها ناعم وحنون.. عاد لي سمعي أو ربما منحته السماء صوتًا فجأة، تسرب لأذني صوت دافئ هادئ يقول: أنتِ جميلة جدًّا.

ارتبكت ملامحي ما بين الخوف والحياء والنشوة، وبسمة أرادت الانزلاق على شفتي المكتنزتين ووجنتي اللتين اختنقتا بدم الحياء، عيناه لا تتحركان مسمرتان في محجريهما تحدقان تجاهي، لا يرف لهما جفن.. ابتسم ابتسامة صغيرة وقال لا بأس يا جميلة.

(أنت لي..).

كلمتان صغيرتان حروفهما قليلة لكن وقعهما في نفسي كان كصاعقة.. كانفجار نيزك...

مرت دقائق كدت أموت فيهما ألف مرة، فقلبي لم يعد يعمل كما يجب، وتنفسي مضطرب كليًّا. وتسرب إلى أطرافي شعور عميق بالبرودة فباتت ترجف كأطراف عجوز في شتاء بارد..

أتت كلماته تتدفق في همسة ناعمة، لمست روحي وأحكمت القبض على قلبي هكذا جملة، مد يده في جيبه التقط قلمًا ذهبيًّا مزينًا ببعض الماسات الصغيرة في آخره، وأخرج كارتًا أنيقًا من جيب محفظته، وكتب على ظهره رقم جوال. قال هذا رقمي الشخصي، وطبع قبلةً رقيقة على خدي الأيمن لمست نصف شفتيَّ، وانصرف كبطلٍ فارٍّ من قصة خرافية، كهاربٍ من رواية، واختفى.

جلست على مقعدٍ رخامي بجانب باب القاعه أبحث عن ذاتي، أستجمع شظاياها التي بعثرها غريب في قبلة، أتساءل أنا وإياها من كان!؟ كيف ظهر هكذا من العدم!؟ كيف سقط داخلي بكل تلك القوة!؟

أتحسس شفتيَّ موضع القبلة.. أتساءل هل قبلني حقًّا!؟

تجحظ عيناي وتنفرج شفتاي في اضطراب ودهشة الآتي للتو وقلبي يتابع لحنه الصاخب في صدري، أشيح بنظري في المكان أتفحَّصه هل من أحد هنا؟ هل من أحد رآنا؟

ربما كان هذا حلمَ يقظة من أحلامي الكثر... نظرت ليدي لأجد هذا الكارت الورقي الذي حشره بين أناملي، أجيب نفسي لا ليس حلمًا لن تأتي تلك الورقة من العدم.. نعم هذا الساحر حد الدهشة حد إيقاعي بين شكي ويقيني.. كان هنا..

تلك العينان الصغيرتان والمتألقتان في البني المائل للأحمر، وتلك البشرة الحنطية والشفتان الحمراوان النحيفتان الشهيتان الماهرتان جدًّا بالقبل، واللحية المرتبة المعتمة التي جعلته يبدو كأبطال السينما، وتلك الغرة الكثيفة التي تطل من أسفل «الحمدانية» الجميلة... نعم كان هنا.

تذكَّرت فجأة أمي، يا إلهي.. عليَّ الذهاب، عليَّ العودة إلى الحفل لقد تأخرت، لملمتُ بعض نفسي وجررتها عائدة للقاعة، نثرت نظرات مبعثرة في المكان أبحث عن طاولة أمي، أخيرا وجدتها، أخذت طريقي بين الطاولات ها هي أمي تشير لي بيدها، وصلت الطاولة وسقطت في الكرسي سقطة عائد من تدريب ركض، وقبل أن أتم جلستي بادرتني أمي بسرب من الأسئلة دفعة واحدة:

أين كنتِ؟ لماذا تأخرتِ؟ الجميع يسأل عنكِ...

نظرت لها في حدة واستنكار..

عني أنا!؟ لماذا!؟

كانت تهم بالرد عليَّ لكني لم أعطها الفرصة لذلك؛ فقبل أن تفتح ثغرها أو تنبس ببنت شفة استكملت كلامي:

حسنًا يا أمي أنا لست بمزاج جيد لألقي فروض الطاعة والولاء أمام صديقاتك اللطيفات، ولا لمقابلة بناتهن مدَّعيات الحسن والثرثارات حد إصابتي بانهيار عصبي، سمعتني أمي بإنصات وهي ما زالت تشعر بطعم الكلمات بثغرها، أخذت برهة لترد عليَّ وبعدها أجابتني بهدوء: حسنًا هن طبيعيات يعشن سنهن ويفكرن فيما يتناسب معه أظن أنكِ مَن تعانين مشكلة...

تقيَّأت أمي كلماتها القاسية في وجهي كالحجارة وصمتت، وعيناها مسمرتان في عيني ثم أدارتهما في وجهي بنظرة متفحصة وسألتني: ما بك...؟ لماذا أنتِ مضطربة إلى هذا الحد؟

اضطربت وأخذت نفسًا عميقًا وأجبتها: لا شيء، أشعر بالجوع والإجهاد.. فقط سأذهب لأحضر شيئًا آكله أو أشربه..

- حسنًا اذهبي.

مشيت كضالٍّ لا يعرف له وجهة، طاولات الضيافة في كل مكان عليها ما لذ وطاب، إلا أن نفسي لم تكن تشتهي شيئًا سواه، صببتُ فنجانًا من القهوة العربية التي لم أكن أحبها، ورشفت رشفة احترقت على إثرها شفاهي من شدة حرارتها، واضطربت وقفتي فوق النعل المقصب ومال جسدي

فسقطت أطراف شعري في الفنجان وتبللت بالقهوة، حينها تذكرت أني لم أعقد شعري بمشبك الشعر.

عدت أتحسَّسُ طريقًا لطاولتي بين زحام المدعوين، غاضبة ولا أعلم لماذا! أَكُلُّ هذا الغضب بسبب تبلل أطراف شعري بالقهوة!؟ نظرتُ في اتجاه الطاولة فإذا بها تعج بالصديقات.. همستُ: تبًّا كأن الأمر ينقصكنَّ! سلمت عليهن وانهالت القبلات على جانب واحد من الوجه، والكثير من الأحضان الحنونة، والأيدي التي تنزلق في رفق وحذر على ظهري العاري لتتفقَّد كم كبرت.

بادرتني إحداهنَّ بسؤال عن الدراسة حيث إني قد أنهيت دراستي الثانوية، فأجبتها: سألتحق بجامعة القاهرة، فعقَّبت متعجبةً من الأمر -فعمري لم يزد عن السابعة عشر بعد- ستدرسين في مصر!؟

أجبتها: نعم.

نظرت تجاه أمي موجهة لها سؤالها في تعجب واستنكار: هل ستتركينها تسافر وحدها يا فاطمة!؟

- لن تكون وحدها ستجلس في بيت عمها...

قاطعت إحداهن أمي قائلة: يمكنها أن تدرس بنظام الانتساب.

أثنت أمي على هذا الاقتراح وقالت: سأناقش الموضوع مع أبو طارق إن شاء الله.

وأنا بينهن شاردة الذهن لا أعي نصف الحوار، راسمة ابتسامة باهتة على ثغري غارقة في نفسي، شيء جديد يحتل كلي.

صخب مفاجئ في القاعة.. لقد حان موعد العشاء الميمون الذي لن أذهب إليه أبدًا والذي عادة ما يكون جملًا كاملًا مطهوًّا، أو عددًا لا بأس به من الضأن فوق كمية مهولة من الأرز، والمقبلات مثل ورق العنب والكبة السورية والأكلات السعودية، وعلب الرايب والصودا واللبن الذي أكاد أجزم بأنه سيلقى بأكثر من نصفة في القمامة آخر الليل..

وفود قادمة وأخرى ذاهبة، اضطرب المكان وعجَّ بالحركة، هاهن فاتنات الحفل بكروشهن الممتلئة سيتوسطن القاعة ليستعرضن مهارتهن في الرقص؛ لعلها تعجب إحداهن فتختارها عروسًا لابنها كما جرت العادة.

طلبتُ من أمي أن نعود للبيت فقد اكتفيت وتعبت، وقد أدينا الواجب الاجتماعي بالتهنئة.. ماذا يبقينا بعد ذلك؟ لكن ما من مجيب، انخرط النسوة جميعهن في ثرثرات جانبية، وأمي مندمجة كليًّا في حوار هامس مع صديقتها الغالية أم فهد.

بدا على ملامحي الملل واضحًا جليًّا حينما التفتت لي أمي وهمست:

- لمَ لا تذهبين للرقص مع الفتيات، أو تنضمين لحلقتهن!؟

أجبتها بتململ: متى ستفهمين أني لا أشبههن!؟

أمسكت هاتفي وعلى غفلة من أمي أرسلت رسالة إلى أبي، أطلب منه إقناع أمي بالعودة للمنزل فقد تعبت كليًّا.

رد عليَّ والدي بتفهم: حسنًا حبيبتي سأهتم بالأمر.

بعد عشر دقائق مرت كأنهن دهر، دق هاتف أمي لكنها لم تنتبه له من الصوت المرتفع للموسيقا

وكذلك اندماجها في حوارها مع أم فهد، لمست كتفها في رفق أنبهها لرنين الهاتف، أمسكت الهاتف وقالت هذا أبو طارق. مالت للخلف قليلًا وقطعت الرنين بصوتها الجميل ولهجتها الشامية التي تجعل لحديثها نكهة مميزة:

- السلام عليك يا محمد.

- وعليكِ السلام يا حبيبة الروح: ألم تشتاقي لمحمدك بعد!؟ سرقكِ الحفل بما يكفي مني فهلَّا أتيت فقد اشتاق إليكِ محمد كثيرًا.

فطنت أمي لما فعلت ونظرت باتجاهي وفي وجنتيها حمرة خجل، وقالت: والله هذه الياسمين يا محمد.

رد أبي قائلًا: ألا تشفقين بحال عجوز مرهق يحتاج لقربك يا شريكة العمر!؟

- فداكَ نفسي يا محمد سآتي إليك... حسنًا يا أم فهد هذا أبو طارق يريد العودة إلى البيت فهو مرهق في العمل طوال الأسبوع أستئذنك يا غاليتي..

- لا بأس يا فاطمة سنكمل حوارنا لاحقًا.. تعالي لزيارتنا.

- حسنًا غاليتي إن شاء الله.

جمعت أمي أغراضها من على الطاولة وأشارت لإخوتي، وتحسسنا طريقًا من بين الطاولات إلى الباب الرئيسي للقاعة، أعطيت العاملة البطاقة التي تحمل رقم صندوق الحفظ، وأعادت لنا أغراضنا. ارتدينا العباءات والحجب.. وانطلقنا تجاه سيارة أبي فكان ينتظرنا عند نهاية الممر حيث الطريق. ركبت مع إخوتي بالخلف وركبت أمي إلى جانب أبي، لم تكمل غلق الباب حتى حينما اندفعت في سؤال أبي:

- بالله يا محمد أجبني أما للياسمين يد في عودتنا الآن؟

أجابها أبي مغازلًا: بل اشتقت لصاحبة العيون العسلية التي أسرتني منذ عشرين سنة.

ابتسمت له وقالت: كم أحب كلامك يا محمد.

أرسل لي أبي في مرآة السيارة الأمامية ابتسامة خفيفة وغمزة، وأرسلت له قبلة صغيرة من خلالها.

وصلنا البيت وذهبت مباشرة إلى غرفتي المكتظة بالفوضى على أثر الاستعدادات للحفل، أسقطت فستاني تحت قدميّ، وخرجت خارج النعل الخانق وانزلقت تحت الغطاء الناعم، أنظر إلى تلك الورقة التي اختمرت في يدي. سجلت الرقم على الهاتف ودسست الورقة في رواية

كانت غافية فوق وسادتي، وأخذت أفكر في القبلة وصاحبها.

كنت أرجف كطفل ارتكب خطأ كبيرًا وخائف أن يشي أحدهم إلى والديه، كان الوقت يمر وأنا غارقة فيه أتلهف وصله وأخافه، إلى أن قررت الاتصال به، رنين الهاتف يقع في صدري كأجراس كنيسة حين أتى صوته عذبًا متدفقًا كنهر..

- كنت أنتظرك.. ما اسمك؟

- الياسمين اسمي.

- يليق بكِ، كنتِ تعبقين كمن سقطت في بركة ياسمين قبل المجيء.

لحن يغتال كل الحواس جملة، لمست كلماته جسدي بقوة رجف على أثرها كلي أسفل الغطاء الوثير

سقطت كلماته في عمقي، أمسكت روحي وأحكمت القبض على قلبي.

الفصل الثاني

انتهت المكالمة نهاية مفاجئة حيث فرغت البطارية وانقطع الصوت، وغططت في نوم عميق. مر يومان وما من صوت يأتي من بين رنين الهاتف، في اليوم الثالث انطلق رنين الهاتف كترنيمة مقدسة أربكت قلبي، أتى صوته بعدها كأنه الوحي أتى من مسافة همستين من أذني: اشتقتك.. اشتقتك حد التشظِّي داخلك والانحلال فيك..

كان عازفًا متمكنًا يعزف بالكلمات كمن يعزف على قيثارة، قال: ما حال شفتيكِ الشهيتين جدًّا واللتين توجهان لي دعوة مفتوحة للقبل...

تعالى خفقُ قلبي.. حتى ظننتُ أنه سمعه عبر الهاتف، وبأنفاسي رجفة متقطعة حين قاطعني هامسًا:

أحرقتني.. انزلي إلى حديقة المنزل.

انصعت لأمره انصياع مغيَّب، نزلت كما أنا ببيجامة طفولية وردية اللون عليها رسومات كرتونية وخفٍّ خفيف، وشعر أسود طويل مموج ينساب كشلال خلفي.

كنت أظن أنه يريد أن يريني القمر أو السماء بنجماتها الكثر، أو الزهرات أو أي شيء يشي بالحب.. نزلت الدرج موجهة نظري إلى

حيث الباب فإذا بملاكٍ بثوب أبيض يطلُّ من العتمة، قمر سقط من السماء فجأة، زهرة برية نادرة نبتت من باطن التربة الصفراء من اللاشيء في تحدٍّ صارخ لقوانين الوجود...

تلعثم لساني، هجرتني اللغة، لم أستطع صياغة كلمة واحدة من الأبجدية كاملة..

جذبني إليه في ضمة تكسَّرت فيها أضلعي بين ذراعيه، وكأن فجوةً ما فُتحت في صدره لتبتلعني، شعرت بأن دوامةً تجذبني لبعد سحيق ربما لقعر محيط، لمساحة واسعة جدًّا رغم ضيقها الذي طبع فيها أثر أصابعه على ذراعيَّ وظهري، وسيل دافئ من القبل انساب فجأة وفي هذه المرة لم تكن تشبه السابقة.

انزلقت فيها شفاهه فوق شفاهي تبتلعهما تارة، ويترك لسانه يغوص في بركة ثغري في غارةٍ مفاجئة تارة، وليس هناك من مفر أو مخبأ. كانت أنفاسه تلهب حواسي جملةً، تعمد نحري في لهثة قوية أو قبلة هادئة كنسمات الصيف.

همست بأنفاسٍ متقطعة: رفقًا...

نظر لملامحي المضطربة وأنفاسي المتسارعة، وأطرافي التي تسرَّبت إليها برودة مفاجئة جعلتها ترجف في يده، فهمس وعلى ثغره بسمة منتصر: حسنًا اذهبي الآن فأنتِ لي.

كنت أبتلع كلماته كأنها حلوى شهية جدًّا، شوكولا من نوع فاخر لا يمكن لأحد أن يقاومها.

كان اللقاء بمثابة تحول جذري لي من الطفولة إلى الشعور الكامل بأنوثتي.

مر وقت طويل بعد هذا اللقاء لم يجمعنا لقاء صوتي أو فعلي، لم يتصل، تجمَّد رنين رقمه على ثغر الهاتف، وتوقفت رقصات اسمه على شاشته، لم أكن أعرف ماذا عليَّ أن أفعل ولا ماذا حدث، كنت أغوص في لجَّة من الأسئلة:

أين ذهب؟ لماذا رقمه مغلق؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟ عليه أن يكون عادلًا معي... لماذا ظهر إن كان يود الرحيل؟ لماذا...؟ لماذا...؟ لماذا...؟ أنَّى لي بإجابات على ألف لماذا...؟

حيرى تأكلني الأسئلة.. سقطت في بئر عميقة من الحيرة والخوف. ذهبت لأبي أتحسس بخطى الخوف إجابات لبركان «لماذا» الذي انفجر داخلي؛ حيث إن أبي كان يعمل مهندسًا بالشركة التي يعتبر علاوي أحد ملاكها..

اقترحت على أبي السفر لدبي -كمحاولة مني لاختلاق حديث يدور حول علاوي علَّني أجد ضالتي- أجابني أبي بلطف: حسنًا حبيبتي سأفكر في الأمر...

قاطعته بلهفة: لمَ التفكير يا أبي أليس لديك صديق في دبي!؟ لمَ لا تتفق معه ليهتم بالأمر؟

أجابني: حسنًا حبيبتي في زيارته القادمة للشركة.

كنت قد استشففت ما حدث، إلا أني سألت أبي بعد أن ماتت في عيني اللهفة:

- هل سافر!؟

قال: نعم منذ مدة.

قلت بنبرة مهزومٍ: حسنًا لا بأس أعتذر عن إلحاحي.. كان اقتراحًا فقط..

فأجابني أبي الحنون في هدوء: لا مشكلة حبيبتي سأدرس الأمر.. أعطني قبلتي التي أقتات عليها طوال اليوم.

طبعت قبلتي على جبين والدي وذهبت في دوامة داخلية، تجذبني إلى أبعد قرار لترطمني بالقاع فأتكسر كقارب خشبي مهترئ وأعود لأطفو مفتتة أفتِّش عن خطئي الذي أعاقب عليه بكل هذا الألم. وتلوم أجزائي بعضها بعضًا أي جزء ألقى بجميعنا في هذا الجحيم.. تتساءل في اختناق من أين نوقد الأمل في كل هذا الخراب! أفتِّش خلف حطامي المتناثر في نفسي عن زمن المجيء...

اعتزلت الجميع وتقوقعت في ذاتي حولها، فلم أعد أختلط بأحد، لم أكن أمارس الحياة بقدر استسلامي لها.. أقرأ أو أبعثر بعض الحروف التي لا تحمل نمطًا أو وجهة.. آكل قليلًا وأنام كثيرًا وأرفض الانخراط

في أي تجمُّع، حتى بلغ بي عظم الأمر أني رفضت الذهاب مع أسرتي لزيارة أم فهد صديقة أمي الغالية في سهرة أعدت خصيصًا على شرفنا... فهي أم العريس المنتظر، التي أعدت حفلًا خصيصًا لتتباهى وتستعرض جمال اختيارها أمام قرابتها..

كان فهد بالنسبة لأمي صيدًا ثمينًا وعريسًا لا يفوَّت؛ فهو عائد حديثًا من بعثة دراسية يحمل شهادة في الهندسة، ممتلئ ببعض الأفكار المتحررة والثقافة الغربية التي اكتسبها من العيش في مدينة الضباب، كذلك فالوضع الاجتماعي لعائلتة الثرية يزيده بريقًا بعينيها، ويملك من الوسامة ما تظن أمي أنه سيغريني فيه..

حقيقة لا أعلم كيف تفكر أمي؟ كيف ظنَّت أني سأقبل بهذا الفهد؟ كيف سأعيش أو أتكيَّف في بيت كهذا؟

أنا التي ما زلت أجد صعوبة في تصفيف شعري بنفسي، أنا التي لا تجيد شيئًا سوى الهذيان المطلق، سوى بعثرة أفكاري على الورق أو الاندماج كليًّا مع رواية أو أغنية عاطفية... ما السبيل أمام مثلي للتواصل داخل بيتٍ مكتظٍّ بالسهرات كل ليلة لم أسمع أهله أو ضيوفه يتحدثون بشيء قط سوى المكياج والماركات وأصول الضيافة والطبخ، وفلانة فعلت وفلانة اشترت وفلانة تشاجرت، ثرثرات لم تكن تمتُّ لي بصلة.

حتى هذا الفهد لا أعرف شيئًا عن فن إرضائه ولا عن إرضاء الغالية أمه وصديقاتها اللطيفات.. كيف فكَّرت أمي أن تضعني وسط هذا الكابوس وتظن أني سأتكيف مع كوني ألة تفريخ أجنَّة للغالي فهد لأنجب له قبيلته الخاصة، التي تريدها أمه...

ليلة أخرى وصاحب الصوت الدافئ، أتحرر فيها من كل ملابسي وأحتضن ذاتي، وآخذ وضعًا جنينيا في قلب سريري الصغير، أدفن رأسي بين كتفيَّ، أحاول أن أقتفي أثره على جسدي، ألملم عطره من مسامات جلدي، أبتلع شوقي وهذياني فيه، وأقتر ما كان منذ أسبوعين ووقعه في نفسي، حتى انزلقت دمعة يتيمة على خدي الأيمن، غبت بعدها في ثبات عميق وجوَّالي بيديَّ كأنه طوق نجاتي، كأنه يختزن بين جسده الحديدي المعتم آخر ما تبقى لي من أمل..

مر أسبوعان متُّ فيهما ألف مرة، عانيت خلالهما من تقيؤ عصبي، انطفأت الحياة في خلاياي وماتت على شفاهي اللهفة... حتى هذا الصباح الذي أشرقت فيه شمسه لتطل عليَّ من رنين هاتف

كان يقع في صدري كأذان.. قطعه صوته الذي انساب كجرعة ماء بثغر عطشان طال انتظاره، شهقت، وجدت أنفاسي الضالة طريقها إليه وانخرطت في بكاء حاولت قدر جهدي أن يكون صامتًا غير أنه وصله.

قاطعني قائلًا: لا بأس سنلتقي في حديقتكم اليوم عند المساء، لا تحزني فقد افتقدت بسمتي... وانقطع الخط.

صوت في نفسي يتساءل أي نوع من الرجال هذا!؟ يظهر ويختفى كشهابٍ مارٍّ يلمع في السماء فجأة ويختفي فجأة، كنت أنتظر المساء بفارغ الصبر.. أتفقد النافذة كل دقيقة أو دقيقتين، سمعت صوت سيارة يتدفق إلى أذني من بعيد، الصوت يقترب ويقترب، أخيرًا تسرب إلى أذني صوته مختلطًا بصوتٍ آخر كان صوت أخي طارق، ركضت باتجاه النافذة أتفقَّده.. يا إلهي ابتسامته الساحرة ونظراته الحيرى تفتِّش عني خلف النوافذ..

كنت أقف خلف نافذة غرفتي أراقب حين ألتقط قلمًا وورقة، وأخذ يخربش على الورقة وأنا أحدق فيه، أعطى الورقة إلى أخي وطلب منه بلطف شراء بعض الأغراض له. ابتسم له أخي بلطف، وقال: حسنًا لكني سأستغرق بعض الوقت.. ودلَّه على الطريق إلى داخل الخيمة ليرتاح قليلًا حتى يعود، فكلُّ شيء معد هناك القهوة العربية والشاي والتمر المحشو باللوز والحلويات والفطائر المالحة، كانت أمي قد أعدَّته له سابقًا، وكان هناك شاشة ومكيف صحراوي ومجلس مريح.

صب أخي له القهوة وأدنا منه كل أصناف الضيافة وانصرف، سمعت صوت السيارة تبتعد.. فإذا بهاتفي يدق من جديد.. ما إن سمع صوت أنفاسي حتى سمعت صوته يقول تعالي أنتظرك في الخيمة. وسكت الصوت..

قلت في نفسي هذه المرة لن تكون بيجامة طفولية وخفًّا، اخترت جينزًا سماويًّا ضيقًا وكنزة سوداء حريرية فضفاضة، ورفعت شعري ووضعت عطر الياسمين المميز من شانيل. وضعت حمرة زهرية تفيض فيها شفتيَّ بالأنوثة، وكحلًا أسود. ارتديت ملابسي وعقدت طرفي قميصي من الأمام بعقدة خفيفة حتى لا يبدو فضفاضًا للغاية، انتعلت بلرينا نسائية خفيفة برونزية اللون ونزلت تملؤني اللهفة أكاد أطفو فوق الأرض.

وقفت عند باب الخيمة ألقيت السلام وما من مجيب.. كان غافيًا على متكئ أعده له أخي آخر الخيمة. اقتربت ببطء تجاهه أتفقَّده، كان مغمض العينين غائبًا في عالم آخر، وقفت أحدق في هذا الملاك الجميل أتساءل كيف يكون قاسيًا هكذا، عيناه غافيتان أسفل جفنيه في هذا التجويف المحفور بدقة وروعة في رأسه يحلق من فوقهما حاجباه كأنهما جناحا عصفور جنة.. أنفه الدقيق وشفتاه النحيفتان الحمراوان المشرقتان في لحيته المعتمة كعمقِ جبٍّ، غُرته الكثيفة الغافية فوق جبينه، التي تعطيه مظهرًا طفوليًّا محببًا للعين.

جلست بقربه فإذا بي أمد أطراف أناملي تجاهه برجفة وتردد؛ لأزيح غرته من فوق جبينه ليبدو أمامي أكثر وضوحًا، انزلقت أناملي لامست بحذر وخفة وجنتيه وحواف شفتيه فإذا بيديه تقبض على معصمي برفق وعيناه تحدقان تجاهي في هدوء وشوق، وشفتاه تطبعان قبلات صغيرة على أطراف أناملي ودنا مني.

همس في أذني: هل كنتِ تظنين أني سأخطئ عطركِ!؟ أنت تغوصين في دمي كأنكِ منِّي..

أغمضت عيني وبدت أنفاسي كبحر هائج في صدري، ما بين مد وجز أموت في شهقة.. اندفعت روحي ممتطية مدة هامسة: فقدتك حد التعب.

وسقطت عيناي في عينيه كنجمتين فارتين من مضطاردة وجدتا لهما مأمنًا. كانت أنامله محتضنة أناملي غافون جميعهم فوق صدره، كان يتفحصني بصمت كمن يراني للمرة الأولى.

حين همس: عيناكِ ازداتا جمالًا.. أصبح لهما سحر خاص جدًّا..

أجبته: كانتا يتيمتين في غيابك كئيبتين تتساءلان لماذا...!؟

وضع أنامله فوق شفتيَّ يجهض الكلمات في بطنها ،وجذبني إليه في ضمة شعرت فيها خفق قلبه بين أضلعي يدق في كل عرق فيَّ. غبنا في قبلةٍ ظننت خلالها أنه ابتلعني، أني أسبح في ثغره أو ربما هو يركض في دمي، قتل اندفاعه بوق سيارته، فإذا به ينسلُّ من دمي وينظر لي فرأيت في عينية أوان الرحيل.

دفنت حنيني في قبر قصي في عمقي وتسللت من بين يديه، ذهبت محملة بالكثير، بالكثير من الفوضى بحواسي المرهقة به، ممتلئة بالكثير من الشغف، مكتظ جوفي ببحرٍ من رغبات يحرك كل ساكن فيَّ. دخلت غرفتي منتشية كمخمور فإذا بصوت يطل من نافذة بعيدة في رأسي يتقيأ أسئلته العقيمة:

كيف عدتِ من عنده بلا أجوبة عن أسئلتك التي أكلتك كل تلك المدة؟ كيف كنتِ بين يديه أطوع من خاتم في أصبعه؟ كيف لم تثوري في وجهه؟ كيف لم تعاتبيه حتى على ليالي الموت البطيء التي افترست أضلعك!؟ كيف لم تسأليه لماذا لم يرحم هشاشة خاطرك؟ كيف...؟

كانت كلمات الصوت تقع في خافقي كحجارة تؤلم كل بؤرة تلمسها، تهدم كل لذه، تطفئ في عينيَّ بريقها.

وصوت آخر يطل من خلف أضلعي يهدهد عليَّ، ويهمس في قلبي: لا بأس أنا أصدقه.

قطع تمزقي بين الصوتين صوتُ تنبيهٍ قادم من جوَّالي.. إنها رسالة نصية منه.. مكتوب بها اسم مستعار وكود سري كاشتراك في منتدى أدبي ضخم يضم كتابًا وشعراء من مختلف الجنسيات.

ذهبت إلى جهاز كمبيوتري وبحثت في جوجل عن المنتدى، وسجلت الدخول بالاسم والكود المرسلين لي، كان منتدًى كبيرًا وضخمًا به الكثير من الكتابات والشخصيات المميزة، كان علاوي من الإدارة العليا ويكتب بقسم الشعر النبطي أو النقاشات العامة.

لم أكن أفهم هذا النوع من الشعر فهو يكتب بلهجتهم التي لم أكن أفقه عنها الكثير، مع هذا كنت أقرأه وأبذل جهدي لفهمه وإدراك معانيه. أرسل لي علاوي رسالة ترحيب خاصة على المنتدى مع تلميح بسعادته لحضوري بينهم، كنا نتراسل بشكل يومي نتحدث في كل

شيء، في الشعر في الأدب في كلماته التي أجد صعوبة في فهم معناها وفي جرأة خواطري في السفر في الثقافات المختلفة للشعوب في مواضيع تخص المرأة الخليجية.

ذات رسالة تنبأت من الطقس العام بأن هناك لقاءً قادمًا.. لكني خفت أن تكون تنبؤاتي كتنبؤات نشرة الأرصاد الجوية في وطننا العربي، فالتزمت الصمت بالعة كل ظنوني في جوفي إلى أن أستيقن الرؤيا.

وبالفعل صدقت رؤياي،وجاء إلى الرياض، كان على أخي طارق الذهاب للقائه فقد كان يعمل أيضًا في الشركة كمهندس ويسكن مع زوجته في مدينة أخرى قرب أهل زوجته السعودية إلا أنه دائم التواجد في منزلنا بحكم عمله، فاختلقت سببًا ملفقًا للذهاب معه متحججة بشراء بعض الكتب وزيارة إحدى الجامعات هناك والتسوق.

وافق أخي على طلبي وسافرنا معًا، وهناك وجه علاوي لنا دعوة عشاء في أحد المطاعم التركية الشهيرة. وبصراحة كانت المطاعم بالمملكة تمثل لي نوعًا من الاختناق؛ حيث إنها تنقسم لقسمين قسم للعزاب وهو خاص بالرجال فقط وهو شبيه بكل المطاعم في أي دولة: طاولات مصفوفة بشكل أنيق ولطيف، وقسم آخر للعائلات هو عبارة

عن غرف ضيقة منفصلة بمساحات متساوية قد تحتوي الغرف على مجلس أرضي وقد تكون طاولة وعددًا لا بأس به من المقاعد المريحة.

بصراحة لم أكن أحب المطاعم في المملكة لهذا السبب بالذات، نحن لا نذهب إلى المطاعم لنستمتع بالطعام فقط ولكن لطقوس تناول الطعام في مكان خارج المنزل وأنت تستمع للموسيقا مع الآخرين في مكان واسع وإطلالة جميلة نكهة خاصة، وإلا ما الفارق بينه وبين تناول الطعام في المنزل؟! فكل المطاعم تقريبًا أصبحت توفر خدمة التوصيل إلى المنازل.

قبلنا الدعوه وذهبنا ثلاثتنا إلى المطعم وبما أني كنت معهم حجز علاوي لنا بقسم العائلات طاولة بغرفة مستقلة وأربعة كراسي متقابلة وباب مغلق. جلست إلى الطاولة مقابل علاوي وأخي جلس بجانبه، كانا يعملان معظم الوقت وأنا أنظر إليه كان يعجبني شكله الجدي.. كنت أراقب حركة شفتيه، وإيماءات وجهه، لفتاته، نظرات عينيه، حركة أنفاسه، طريقة مسكته للقلم، طريقة كتابته...

كنت ساقطة فيه كليًّا، لم أكن ألحظ أو آبه لشيء سواه، حين شعرت بشيء ينزلق على ساقي في حركة شهية حذرة، نفر على أثرها جلدي حتى بدت لي نفسي لبرهة كمن يقف عاريًا أمام عاصفة ثلجية، انتفضت واقفة، فإذا به ينظر إليَّ نظرة معاتب، فجلست في هدوء مدَّعَى، وغرقت في خجلي مضطربة ومرتبكة، وهو لا يبدو عليه أي

علامات الاضطراب مندمج كليًّا في العمل بذهن حاضر وسرعة بديهة وذكاء.

استأذنت في الذهاب للحمام، أردت التنفس كنت قد غرقت كليًّا في عرقي من وقع أنامله على ساقي. ذهبت أتنفس وأغسل وجهي وأرتب نفسي قليلًا حين اتصل بي أخي يستعجلني فقد أتى الطعام.. راسلني بعدها علاوي يتساءل عن سبب ذهابي أجبته على الفور ألا تعلم؟! أنت السبب، سببت لي الاضطراب، أجابني وأنا أخاله مبتسمًا: حسنًا تعالي لقد حضر الطعام.

وصمت الهاتف.

عدت إلى الطاولة وجلست في مكاني، الطعام كان كثيرًا جدًّا على عددنا البسيط، تناولت شوكة لأبدأ فإذا بعلاوي يأكل بيديه فقد كان قبليًّا يأكل بطريقة منفرة، صُدمت من المنظر وبدت علامات الاشمئزاز على وجهي واضحة وعزفت عن الطعام، وقع ذلك في نفس علاوي وجعله يستاء مني كثيرًا، وقال بصوت مختنق: لا بأس فالنبي كان يأكل بيده، أكملوا طعامكم سأذهب لشراء الدخان.

انصرف علاوي وهو يحترق من الأذى النفسي الذي تسببت فيه دون تعمد، والذي أدركته في صوته وملامحه، صرخ أخي في وجهي وعنَّفني على قلة احترامي واتهمني بالعجرفة وعدم مراعاة شعور الآخرين ودفعني بقوة ليزيحني عن طريقه حتى اصطدمت بالطاولة.

الفصل الثالث

بعد هذا الحادث ساءت الأمور بيننا كثيرًا. انقطعت علاقتنا فلم يكن هناك أي شيء يدل على وجودي في حياته أو وجوده في حياتي، مات كل شيء، كنت أتصل به وما من مجيب لنداءاتي الكثر، أرسل له وما من قارئ وكأن رسائلي تسقط في فجوةٍ ما في هذا العالم العنكبوتي فلا تصله مطلقًا.

كان الوقت يمر كالجبل كنت فيه ميتة على قيده، لا شيء يغريني للحياة أبدًا، أحيانًا كنت أبعثر بعض حروفي على المنتدى وأنصرف في سكون عابرِ سبيل لا أحد ينتظر قدومه ولا أحد سيلفته خروجه، كنت أعيش كابوسًا خانقًا جدًّا وما من موقظ لي من بين كل هذا الركام. من جهة أخرى كانت أمي لا تتوقف عن الأسئلة، وعن الجلسات والحفلات النسائية التي يجب أن أكون إحدى بطلاتها، عليَّ أن أزيح الشحوب عن وجهي وأتأنق وألبس أجمل الفساتين وأصفف شعري وأرسم ابتسامة عميقة على وجهي حتى تعيد حفْر غمازتيِّ بوجنتيَّ اللتين فقدتا حيويتهما من فرط ثقل ما أشعر به من حزن في نفسي. عليَّ ارتداء الأحذية الخانقة وحمالات الصدر الإسفنجية لأبدو أنثى بكامل أناقتها وأنوثتها.

كانت الجلسات النسائية والحفلات والسهرات أشبه بحفلات السجادة الحمراء في المهرجانات السينمائية الدولية، تعج بأفخم الماركات وأحدث صيحات الموضة وأجمل قصَّات الشعر والمكياج وأغلى الأكسسوارت، والفساتين والحقائب من بيوت الأزياء العالمية، كانت الحفلات أشبه باستعراض على مسرح كبير، جميعهن يستعرضن جمالهن وأنوثتهن ومهارتهن في الرقص وليونة خصورهن وامتلاء أفخاذهن وصدروهن.

رواد حفلات الشاي عند أمي كن من الطبقة التي تؤمن بقيمة العلم، كن من زميلاتها في العمل مدرسات ومشرفات ومديرات مدارس وأساتذة جامعة، وبناتهن لم يكتفين بالشهادة الجامعية والعمل بها فحسب، فما زلن يدرسن للحصول على درجة الماجستير والدكتوراه بالرغم من كونهن متزوجات ولديهن فريق كرة قدم من الأولاد إلا أنهن طموحات ويقبلن على الدراسة والعمل بجهد وجد. بصراحه كانت السياسات السعودية تدعمهن وتحفزهن.

أشعر كثيرًا بجهل الكثيرين الذين يبنون آراء سطحية حول اضطهاد المرأة في المجتمع السعودي وهضم حقوقها، في حين إذا قارناها بوضع المرأة في مصر مثلًا فستجد أنها لديها حقوق ورفاهية أضعاف ما يدَّعون أنه للمصريات، فهن يعشن في بيوت تصلح لحياة آدمية وليس في عشش تتكدَّس فيها العائلة كاملة في غرفة أو غرفتين، لديها السائق الذي يتولَّى أمر المشتريات والتسوق وإيصالها هي وأولادها إلى

حيث يريدون، وهناك الخادمة التي تتولَّى شئون النظافة والمطبخ ورعاية الأولاد ونظافتهم، وهناك المدرسة التي تهتم بشؤون الدراسة والواجبات المدرسية، فهي متفرغة كليًّا للاهتمام بشؤونها وشؤون زوجها، على النقيض تمامًا من المصرية التي تقوم بكل شيء فهي تعمل خارج المنزل وكذلك تهتم بشؤون منزلها فتطهو وتنظف وترعى الأولاد وتساعدهم في الدراسة وتهتم

بشؤون زوجها، تقوم بكلِّ ذلك بحبٍّ وتفانٍّ دون ملل أو كلل، وتجد أحد المتخلِّفين يتهمها بالتقصير والإهمال، وأن المرأة المصرية مهملةٌ نفسها وكثيرة الشجار وكذا وكذا، ويضعونها في مقارنة غير عادلة كليًّا مع النساء من الجنسيات الأخرى ولو علم أحدهم كم يصرف على هؤلاء النسوة في الشهر الواحد لدخل في إغماءة أو أصابته نوبة قلبية من الرقم الذي ربما سيحتاج للعمل لأكثر من نصف سنة ليحصل عليه، أي عبث هذا، وما من مجال للمقارنة أصلًا!

أما بالنسبة للمرأة السعودية أو الرجل السعودي حتى لا أجد لديهم أي طموح سياسي حيث إنه لا حياة سياسة أصلًا فيه، فكل المناصب متوارثة. ستجد جميع المطالب تدور حول بعض الحقوق الاجتماعية التي تلمس البعض وليس الكل، كحق القيادة مثلًا الذي حصلت عليه مؤخرًا ذلك لتعارض مواعيد أفراد الأسرة في معظم الأحيان مع مواعيدها، والذي يعطيها مساحة أكبر من حرية الحركة وعدم التقيد..

لكن في المجمل المجتمع السعودي مجتمع به حياة مرفهة وغنية بالكثير قد لا يراها المشاهد عن بعد لأنه غير مدعو لاندماج داخلها، قد يعتقد الكثيرون أن الحجاب في السعودية يمنع المرأة من أنوثتها والاستمتاع بحياتها، في حين إن المجتمع السعودي أصلًا معد كليًّا لعدم تملل المرأة من الحجاب، فهي تدرس وتعمل وتتسوق وتجلس وتتريَّض في أماكن جميعها معدة للنساء، ترتدي ملابس أنيقة وجميلة كفتاة لبنانية، الاختلاف الوحيد أنها تتوارى عن عيون الرجال الغرباء عنها في حجابها، عدا ذلك فهي تفعل كل ما يحلو لها.

وفيما يخص العائلة بشكل عام فهم يسافرون لقضاء العطلات داخل البلاد أو خارجها.. كذلك لديهم المتنزهات العامة المجانية التي تضمن لهم قضاء نزهة آمنة ولطيفة طوال الأسبوع، وهي لا تعاني أي نقص يُذكر إلا ما رحم ربي، كذلك يتوافر بها دورات مياه نظيفة ومساجد والإضاءة الجيدة والألعاب والمماشي وأماكن الشي والباربكيو وأكشاك بيع القهوة والبقالة الخفيفة وبعض باعة الأطعمة التراثية المحفوظة بشكل أنيق دون أن تعاني من تطفُّل أو مضايقة أحد، في النهاية هم صنعوا مجتمعًا معدًّا كليًّا ليمارسوا معتقدهم في حرية ويسر دون أي شعور بنقص أو حرمان.

كانت غرفتي بمثابة وطن صغير يضم سجني لذاتي داخل ذاتي بين جدرانه، سرير لفرد واحد تعلوه مكتبة كبيرة بها عدد لا بأس به من الروايات ودواوين الشعر، مكتب بكرسي واحد، خزانة ملابس صغيرة

ملحق بها جزَّامة مرتفعة بأدراج جانبية متتالية للغيارات الداخلية والجوارب وغيرها، وتسريحة تعلوها مرآة كبيرة تعج بالفوضى، وكرسي مريح بقرب النافذة المطلة على الحديقة الخلفية الكبيرة، وكذلك ملحق بها حمام خاص.

طالما كانت غرفتي تعج بالفوضى: الملابس المتسخة والأحذية تفترش الأرض والسرير الذي يعج بالروايات المفتوحة والقصاصات الورقية والأقلام وفناجين القهوة، والمكتب الذي تعاني فيه الأمرَّين للحصول على ورقة تريدها بسبب الفوضى التي تعلوه والذي كان يعج بكتب الجامعة في هذا الوقت؛ فقد كنت التحقت بجامعة القاهرة وانتسبت لكلية الآداب، كنت أزور مصر في فترة الاختبارات فقط.

لضيق نفسي أزحت الكتب كليًّا عن المكتب حتى سقطت جميعها أرضًا وجلست أحاول إرسال رسالة إلكترونية لعلاوي، لكني وجدتني وجهًا لوجه مع كمٍّ هائل من الرسائل التي لم تُقرأ أصلًا. أرخيت رأسي إلى الخلف على ظهر الكرسي وأنا أتمزق داخليًّا. شعرت فجأة بالحر الشديد والاختناق وأخذت أتعرق بشدة، تركت الجهاز يعمل وتحرَّرت من ملابسي ودخلت الحمام، ووقفت تحت الماء لا أدري إن كنت أريد التخلص من العرق والحر أو من حمل ثقيل على كتفي، أو ربما من هذا العبث الفوضوي بناصية رأسي.

كنت مغمضة العينين وجهي للحائط ويديَّ تحتضنان كلي كأني أفتقد جزءًا من جسدي هجرني منذ زمن طويل، أحنَّ إليه، أشعر بألمه

وكأن بعوضة ما تزحف فوقه فأمد يدي إليه لأحكَّه فلا أجده. لا أعلم من أين أتى كل هذا الشعور باليُتم، بالفقد، بالضعف والحاجة، تبًّا لتلك النار التي تشتعل في قعر بطني، تبًّا لذلك النفور المثير بجلدي، تبًّا لذلك الاندفاع الفوضوي لماء فمي، تبًّا لتلك الرغبة التي تأكلني لمجرد التفكير فيه أو تخيُّله. سقطت أرضًا وتكورت حول ذاتي في ذلك الحوض الصغير والماء يسقط فوقي كسيل لا يشفق على جسدٍ ينهار، بكيت بكاء رضيعٍ جائع لا يدري أين الطعام ولا كيف يطعم حاله، بكيت بلا توقف حتى تسلل لي صوت الأذان، أنا التي تؤمن بالإشارات ومسلمة بالفطرة، شعرت بأن يد الله تربِّت على كتفي وتقول لا بأس أنا هنا.

شعرت بسكينة في قلبي وخرجت عارية، الماء يسقط عن جسدي يتناثر في كل مكان كان هناك صوت هدوء عميق يعم المكان يوحي بأن لا أحد في المنزل سواي، انكمشت في سريري عارية تمامًا، أمسكت برواية «الحب في زمن الكوليرا» التي كانت نائمة على الوسادة فوق رأسي، قرأت بعض صفحات بها وإذا بجفنيَّ يرتخيان شيئا فشيئًا كغيمة فوق عينيَّ، تمتزج الكلمات والسطور حتى انطفأ كل شيء أمامي، هالة بيضاء نبتت من اللاشيء تحولت إلى الأزرق ثم إلى الأسود ثم فراغ كوني كبير، يطفو جسدي ممددًا ساكنًا داخله يعلو ويعلو بدون حراك،لا جهد، لا مشقة، لا ألم، لا شيء سوى سلام تام.

فجأة دون سابق إنذار فتحت عيني على صوت جسدي يرتطم بالسرير بقوة كمن عاد من الموت، عيناي مثبتتان في سقف الغرفة

تحدقان بفزع تتساءل ما الأمر...؟ هل مت؟ هل كان هذا هو الموت حقًّا؟ لماذا لم يكن مؤلمًا إذًا كما يخبرونا؟ لمَ كنت أشعر روحي خفيفة تطفو في اللاشيء؟

الصوت برأسي يرتفع بأسئلة لطالما كبتها الجميع داخلنا، كنا نخشى حتى مجرد نطقها في عزلتنا التامة مع أنفسنا.. أسئلة حول الله..

من الله؟ أين هو؟ هل هو يحبني؟ هل هو غاضب مني؟ هل هو قريب؟ هل أنا بعيدة؟

لديَّ قناعة فطرية لا يشوبها أدنى شك بأن الله دائمًا قريب مني يرعاني ويحبني كطفلته المدللة.. يسمعني ويبتسم لثرثرتي الطفولية معه، يشملني دائمًا بحبه وعطفه.. يلبي لي طلباتي ويسامحني كأبي الحنون على كل أخطائي.

لم ينجح أحد قط في إقناعي بأن الله يقف لنا بالمرصاد على كل غلطة، يتربص بنا ويصطاد لنا الأخطاء ليلقي بنا في الجحيم. أشعر دائمًا أن رحمته أوسع بكثير من استيعاب عقول البشر بنطاقها المحدود.. أنا أحبه وهو يعلم هذا فهو ينظر داخلنا، ربما أكون عنيدة وعاصية ومذنبة.. قد أرتكب الذنوب بدون عمد أو ربما بعمد، لكن هناك إيمان داخلي عميق في نفسي يقول إن الله سيسامحني مهما أخطأت، سيكون دائمًا موجودًا لأجلي عندما أحتاجه سيرحم ضعفي ويشملني بحبه ورحمته.

كنت بالفطرة أحبه وبالفطرة أدرك حبَّه لي، كنت أطل من النوافذ تجاه السماء وأبتسم له كأني أراه، كنت أطلب منه كل ما أريد.. وكان يعطيني كل ما أريد، أحيانًا كنتُ أكلِّم نفسي عندما أرتكب ذنبًا أو فعلًا يغضبه، أسألها بغضبٍ وندم: ماذا ستقولين له هذه المرة، كيف ستعتذرين؟ لم يخذلك قط بأي وجه ستقفي أمامه؟ ما الأسباب التي ستقولينها.. ليس لك عليه حجة؟

جلست في كرسيي قرب النافذة وحوار في قلبي يقول:

يا الله أنا لم أفقد إيماني بك قط، تقع في نفسي، وألمس وجودك في روحي، لم أشعر قط أنك بعيد أو غير موجود كما يدَّعون.. أنت الجميل جدًّا بغير وجه ولا جسد، أنت الروح التي تمدنا بالسكينة والحبِّ وتخفِّف عنَّا ألمنا ومعانتنا، أظنهم يبحثون عنك في المكان الخطأ رغم وجودك في كل مكان، إلا أن عيونهم وعقولهم عمياء لا تدركك، ربما كانت تكفيهم نظرة دقيقة في أرواحهم ليلمسوك فيها.

أرتسمت على شفتيَّ بسمة هادئة وهمست في أذن الله، بصوت خافت: أنت نظرت وعلمت ما دار في نفسي فاهدني الخير فأنا أعلم إنك ستختاره لي، وأنا اشهدك إني رضيت بما اخترت قبل علمي به.

وأردفت قائلة: أن كانت أحبك لأهل الأرض لا تكفي لتصف ما أشعر به فماذا سأقول لك أنت يا كل كلي، يا كل الروح وكل الحب.. يا أنت أنت، يا رب القلب بلا منازع ولا شريك، عليك بما ملكْت فاسكنه وداوِ جرحه وخذ بيدي إليك، دلَّني إلى الطريق.

الفصل الرابع

مرت الأيام تجر بعضها بعضًا والأسابيع والأقمار، ولا شيء يحدث حتى ظننت أني فقدت علاوي للأبد، هذا هو شهري الثالث قد انقضى ولا تواصُل بيننا. فتحت المنتدى أتصفَّحه، كنت قد هجرته منذ مدة، لديَّ رسالة جديدة.. كدت أهملها فلم أكن أتوقع أن يكون علاوي.. لكن الفضول دفعني لتفقُّدها. يا إلهي إنه هو... صدري يخفق كغريق للتو نجا، كتب فيها: «سنلتقي في مصر بعد شهرين وقت الاختبارات».

أعدت النظر للمرسل مرة أخرى... ربما لم أكن أصدق أنه عاد، فاض صدري بفيض من المشاعر التي تندفع بكمٍّ هائل من السعادة التي افتقدتها منذ شهور، أشرق وجهي ولمعت عيناي وابتسمت ابتسامةً عميقة، وردَّدت تلقائيًّا الحمد لله لقد عاد... ذهبت تجاه النافذة مبتسمة أبحث عن حبيبي الأكبر من كل حبيب، عن إلهِ الحبِّ لكي أشكره لإعادته لي.

ظننتُ أن الهجر انقضى وأن كل شيء عاد كما كان. لكن خاب ظني، كانت رسالة يتيمة عقيمة لم تلد شيئًا بعدها أبدًا، لا رسائل ولا اتصالات ولا أحلامًا وردية ولا خيالات رومانسية ولا كلمات غزل ولا نقاشات أدبية... لا شيء مطلقًا، حتى إني كثيرًا ما ظننتُ أنه ربما

لم يرسل شيئًا، ربما خُيِّل إليَّ أن هناك رسالة منه، فأسرعت مفزوعة إلى صندوق الرسائل بالمنتدى لكي يطمئن قلبي، لم يكن هناك سوى خيط أملٍ ضعيف خلَّفته في نفسي تلك الرسالة، أملًا في اللقاء.

انخرطت في قراءة أشعار جلال الدين الرومي وابن الفارض، كنت أحب القصائد المغناة ومرثيات الشيعة رغم عدم قناعتي بمذهبهم، غير أني أحب موسيقاهم وتقع في نفسي كلماتها، كنت أدمن على سماعها. حقيقة أنا لا أدري من هو جلال الدين الرومي وما مشكلته مع المذاهب الأخرى، لا أعرف إن كان على حقٍّ أو على باطل، فقط تلمَس روحي كلماتُه، أحبُّ طريقة حبِّه لله، رغم أنه في كثير من الأحيان تظلم الترجمةُ النصُّ كثيرًا؛ فالترجمة الحرفية للشعر في كثير من الأحيان تخرج الكلمات من المعنى المقصود بها وتفقدها الإيقاع الموسيقي..

كنتُ أستفتي قلبي فيما أقرأ فأجدني من الله أقرب عندما أحبه بطريقة الرومي، كنت أشعر بنبضة زائدة في القلب بفرح وقرب محبَّب للنفس. دار في نفسي سؤال عقيم لا ينجب إجابةً قط، كيف للبشر ومذاهبهم أن يرهبوا الناس من الله ويبعدوهم عنه إلى هذا الحدِّ المرعب والبغيض، الكل يريد أن يلقي بالآخر في الجحيم باسم الله، الكل يكفِّر الكل ويرى نفسه هو العابد الأوحد الذي على حق، وكأن الله قد أوكل له أمر الجنة والنار!!

أتساءل لمَ لا يترك البشر بعضهم بعضًا وشأنهم، اعبد الله كما تشاء لمَ تلزم الآخرين بأفكارك!؟ لمَ تجبرهم عليها!؟

أليس الله هو القائل «من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»، وكذلك قال «لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي»؟!

فمن أنتم إذًا لتفرضوا على الناس أفكاركم؟

لمَ لا تدعون الآخرين يعبدون الله كما يريدون، كما يختارون؟!

فأنت لست الصح المطلق ولا هم الخطأ المطلق، أنت صواب يحتمل الخطأ، والآخر خطأ يحتمل الصواب، ما دام الله لم يوحِ لكم أو لهم بشيء، لم يقل لك الله اقتل باسمي!! ولو كان يريد الله قتلهم لقتلهم ما كان الله بعاجزٍ عنهم لو كنتم تعلمون..

أعجز عن فهم الكثير من الطوائف والمذاهب التي جعلت العالم أجمع يصدق أن الإسلام نُشر بحدِّ السيف وليس بالتسامح والسلام.. الكثيير ممن يظنُّون أنهم ينصرون الإسلام يضربونه في مقتلٍ بتصرفاتهم وقناعاتهم الفكرية البعيدة كل البعد عن النهج النبوي المبني على التسامح والحب واحترام الآخر واحترام الأديان والعقائد.

أرى ذلك وأنا البسيطة في إسلامي، وكأن الإسلام الذي أعرفه وأؤمن به غير الإسلام الذي ينشره أصحاب هذه المذاهب على اختلافها. عندما أنظر في قلبي أجد صدري مفتوحًا للجميع، أحب الجميع بلا شروط، أحترم كل المذاهب والأديان والمعتقدات بلا استثناء، أقبل

بهم لأنهم بشرٌ مثلي غير أن الله أنعم عليَّ وفطرني على الإسلام، ومن يدري ماذا لو كنت فُطرت على ملة أخرى؟ فأنا لا أعلم مَن أفضل عند الله، من يدري خاتمته!؟

أحتقر ذاك الذي يجلس ليسخر من راقصةٍ أصرَّت على الصلاة بعد حفلة رقصها، وذاك الذي يأخذ مساء كاملًا ليتحدث عن أحدهم لا يذهب للمسجد ولم يسجد به سجدة قط، وعن فاسق زنى، ونُبذ من المجتمع ويلقي بالجميع في النار وكأنه أخذ على الله عهدًا ألا يصفح أو يسامح أو يتوب على أحد، ويستكثرون على العصاة أن يتركوا بينهم وبين الله طريقًا يصلونه به، أسأل هؤلاء فقط: متى ضمنتم لأنفسكم الجنة!؟ هل أخذتم على الله ميثاقًا أو عهدًا!!؟

غريب جدًّا أمر البشر.. يعجزون عن حبِّ أنفسهم وعن مسامحة بعضهم بعضًا، وعن قبول حقيقة أنهم بشر خطاؤون كالفاسق والبغي والراقصة، غير أن الله سترهم، فيبغضون أنفسهم ويتوارون خلف «قال الله» بتبجُّح وكأن الله لا يراهم!!

فتحتُ المنتدى أتصفَّح قليلًا وأمرِّر ذلك الوقت العقيم الذي يلتهمني في صمت، ذلك الجرس يتراقص بلون أحمر، إنها رسالة. هل يعقل أن يكون علاوي!؟ هل أشفق عليَّ أخيرًا وتذكَّرني ببعض الحروف!؟

ماتت لهفتي على صندق الرسائل، فتحت ببرودٍ أستبين الخبر، فإذا بها مشرفة القسم الذي أكتب فيه تسألني عن سر مراسلة علاوي

لي، أجبتها متسائلة: ما الذي أدراكِ بمراسلته لي!؟ هل تتلصَّصين على صندوق رسائلي أم رسائله!؟ هل هناك من أمر جلل في المراسلة الخاصة بين الأعضاء؟

كانت لهجتي حادة عصبية فيها الكثير من القوة والاستنكار لشخصها، أعتقد أنها أجادت سماع النبره الحادة لحروفي الصامتة التي ربما قد تكون فقط مررت فوقها أطراف عينيها في عجالة، فمن فرط استعمالنا للرسائل المقروءة أصبحنا نتخيَّل نبرة وشكلًا للحروف والكلمات، ونصنع منها سكاكين وشفرات نجرح بها كبرياءنا. أتاني الرد سريعًا حادًّا يحمل في طياته تهديدًا قويًّا: «لي صلاحيات تمنحني الحق بدخول صندوق رسائلك وقراءتها جميعها وحظرك إن احتاج الأمر».

توترت أعصابي حيث إن الرسائل كانت تحمل الكثير من التفاصيل الدقيقة والمحرجة، أردت محوها لكنها هي كل ذكرياتي معه، هي الملاذ لي عندما أفقد إيماني بوجوده، هي اليقين الذي يعيدني إن كفرت بحبي، وتراجعت وقلبي يرجف رجف شاب مقدم على الانتحار عندما رأى الموت بقربه فأصابه الفزع.

ارتبك عقلي وأنا أبحث عن حلٍّ لتلك المتعجرفة التي حشرت نفسها في قصةٍ لا ناقة لها فيها ولا جمل.. أرسلت رسالة للإدارة العليا بكل ما دار مستهجنة فيها عدم احترام خصوصية الأعضاء. أتى الرد سريعًا مطمئنًا بعض الشيء بسرعة النظر في الأمر، تلتها رسالة أخرى بعد قليل من الوقت تقول بأنه تم التواصل مع المشرفة وأنها ارتابت

بالأمر وإنها لم تطلع عليها حيث إنها جميعها مشفرة والولوج ممنوع، تنفَّست الصعداء وشكرت جهودهم وأغلقت المنتدى، فعلاوي لم يكن موجودًا على صفحاته منذ مدة وما من خبرٍ عنه، كذلك فقدت قدرتي في الكتابة فلم أعد أستطيع الكتابة كالسابق، فقدت شغفي بالكتابة والقراءة والتواصل وبكل شيء، كنت أشعر بأن شيئًا داخلي يبكي بصمت غير أني لا أسمح له بالظهور.

بنَت شهورُ الهجر حاجزًا ضخمًا كان ينمو كل يوم أكثر كشجرة تضرب جذورها في عمق الأرض وتطال أغصانها عنان السماء. وجدتني ذات ليلة أسرق من سجائر والدي وأذهب لغرفتي أدخِّنها كمن تدخِّن طيلة حياتها، أشعر بالإثارة تجاه السجائر ذات الماركة الفاخرة، كنت أتلذَّذ بالدخان وهو ينزلق إلى رئتي في كل شهقه وأتلذَّذ بلمسة السيجارة لشفتيَّ وتلك اللسعة اللذيذة التي تستفزهما في كل زفرة، لم تعد تشبعني سيجارة أو سيجارتين مسروقتين من علبة دخان أبي، أرسلت للسائق أطلب منه شراء دخان لي..

أصبحت علبة السجائر دائمة الحضور في حقيبتي، أنتشي بشربها خلف النافذة مع فنجان قهوة وأنا أراقب الليل في تلك الصحراء الخالية من الأحداث، أنتشي بحريقها الدافئ في فمي وأراقب عقبها المغطى بالحُمرة وأثر أناملي عليه.. كدت أُكشف ذات مرة وأنا بمركز التسوق العام حين اصطدمتُ بأحدهم على غفلة وسقطت حقيبتي وافترشت أغراضي الأرض في فوضى عارمة. نظرت أمي لعلبة السجائر

والقدَّاحة ونظرت إليَّ مباشرة. كانت عيناها كصاعقة، وكنت كمن سقط في بئرٍ عميقة ولا يدري كيف الخلاص. كان الشاب يساعدني في لملة الأغراض المتناثرة حين لاحظ حوار عيني وعين أمي، جمعنا الأغراض في الحقيبة وعندما انتهى التفت لي وقال: عذرًا لقد وضعت دخاني وقدَّاحتي في حقيبتك. نظرتُ إليه بحيرة وخوف وأخرجتهم من الحقيبة وأعطيتهما له في ارتباك ونظرات شكر وخجل متمتمة: أعتذر لم أنتبه. قال: لا بأس. وانطلق مع بسمة صغيرة حاملًا معه قداحتي ودخاني وغاب في زحام المتسوقين من شتى الأجناس. تنفست أمي الصعداء وانطلقت منها شهقة قوية كأنها عائدة من إغماءة طويلة.

انصرفنا لقضاء حاجاتنا وشراء ما نريد من المحال المختلفة، انتهزت فرصة انشغال أمي في أحد محال البخور الجانبية واتصلت بالسائق ليشتري لي قدَّاحة وسجائر، فمزاجي رديء للدرجة التي سألتهِم فيها علبة سجائر كاملة الليلة دفعة واحدة.

استأذنت أمي في الذهاب للسيارة حاملة بعض الأكياس معي متحجِّجة بالتعب والإرهاق وكثرة الأغراض، أخذت منه الدخان والقداحة وأعطيته ضعف ثمنهما ليحتفظ بالباقي لنفسه من باب التستُّر على أمري، وهو حقًّا يستحق ذلك فهو لم يكن ثرثارًا، لا يتدخل فيما لا يعنيه مطلقًا ولا يُفشي سرًّ ولا يتحدث إن لم يوجِّه له أحد سؤالًا. كان دائم الابتسامه كان هنديًّا هندوسيًّا أو بوذيًّا ربما

شيئًا من هذا القبيل لا أعلم بالتحديد؛ فلم يكن الأمر يعني أحدًا.. المهم أن يكون صبورًا مطيعًا أمينًا حافظًا لأسرار البيت، حقًّا كان مناسبًا جدًّا لمهنة سائق خاص.

اقترب موعد اختباراتي كذلك موعدي مع علاوي، كما أرسل لي آخر مرة منذ أقل من شهرين بيومين، أعددت نفسي للرحيل؛ رتَّبت حقيبتي ووضعت بها كتب الجامعة واللاب توب وبعض الملابس والأدوات الشخصية وزوجين من الأحذية المريحة.. تأكدت من كل شيء أكثر من مرة وأغلقتها. في الصباح انطلقت مع السائق وحيدة إلى المطار، لم أستطع وصف شعوري في ذاك الوقت؛ كل شيء معتم مبهم وكأني على يقين من أنه لن يأتي، لكن لا بأس فأنا في كل الحالات

مسافرة.

كان عمي ينتظرني في المطار ليصطحبني إلى بيته حيث إنه كان من المقرر أن أقيم عنده فترة الاختبارات. كنت أشعر بالاختناق في بيته، فقد كانت شقة ضيقه بها غرفة صالون مغلقة للضيوف وصاله بها تليفزيون وغرفة نوم له وزوجه، وغرفة يتشاركها ولداه، وغرفة شاركتها مع ابنته وحمام واحد للجميع. الغرف ضيقة ومكدسة بالأثاث، لا يوجد أي نوع من الخصوصية فلم أكن أستطيع التدخين أو التحرر من ملابسي التي أرتديها أثناء جلوسي في الغرفة أو نومي إلا بصعوبة بالغة؛ فلست معتادة على وجودي مع أحد، ومع هذا كله

مضطرة للدراسة مع شخص آخر لا يدرس إلا بصوت مرتفع في غرفة لا تزيد مساحتها عن عشر أمتار تقريبًا..

لحسن الحظ أن عمي يملك إنترنت، وصلت اللاب بوصلة الإنترنت وجدت رسالة على المنتدى تقول إننا سنلتقي يوم الخميس في الأهرامات.. شعرت بخوف ورعشة كان ما زال الوقت طويلًا ليأتي الخميس وكان عليَّ الدراسة لأول اختبار لي يوم الإثنين لم يكن داخلي شيء يصدق أن هناك لقاء قادمًا. مرت الأيام ثقيلة على قلبي، لم أكن أعرف شيئًا عن عمي وعائلته، أبناؤه تتراوح أعمارهم ما بين ثلاثة عشر وخمسة عشر عامًا، سارة هو اسم ابنته التي شاركتها غرفتها وهي الصغرى، لديها بشرة حنطية وعيون سوداء وشعر مجعد بعض الشيء، تظهر على جسدها علامات الأنوثة صارخة رغم ملامحها الهادئة وسنها الصغيرة، لكن طبعها ليس كذلك فهي دائمة الثرثرة على التليفون، تتصرف كالذكور لم أكن أستوعب فكرة البقاء معها؛ فأنا عاجزة كليًّا عن إدارة حوار معها فكيف أستطيع مشاركتها سرير واحد!! كان الأمر أشبه بكابوس، هي لا تكف عن الحركة ولا الإزعاج ولا تشبهني في شيء مطلقًا، لا الاهتمامات ولا نوع الموسيقا ولا نوع الأفلام وأكاد أجزم أنها لم ولن تقرأ قصيدة ولن تمسك برواية أو ديوان شعر في حياتها..

أما ابنا عمي محمد وخالد فكانا توءمان لا يشبهان بعضهما، كانا في عمر المراهقة تحاول لحاهما وشواربهما شق طريقها ببشرتهما المثقلة

بالبثور، أجسادهما رشيقة ومتناسقة، كانا يشبهان عمي قليلًا. كانا دائمي الشجار والصراخ بصوت مرتفع في المنزل، كانا طالبي صف ثاني ثانوي كثيري الخروج والضحك بصوت مرتفع، ما إن يدخلا المنزل حتى تشعر بأنك في ساحة نزال تجعلك عاجزًا كليًّا عن التركيز في شيء، كان فتح كتاب في هذا البيت أشبه بمن يريد قراءة رواية في مباراة كرة قدم في الشمبينزليج بين برشلونة والريال.

أما زوجة عمي رقية فهي سيدة حنطية سمينة بشعر قصير وملامح عابسة صوتها عالٍ ومتسلطة وتحب أن تحشر أنفها في كل شيء، لا تكفُّ عن السؤال عن أدق تفاصيل حياة أبي وأمي ودائمة الشكوى من تكاليف الحياة وغلاء الأسعار، وتتعمَّد الحديث عن الغلاء ونحن على الغداء، كنت أشعر أنها توجِّه لي رسالة دائمة بنظراتها وكنت أجيب بابتسامة هادئة، ودائمًا ما كان يقاطعها عمي ويغيِّر الموضوع بعد أن يشعر باستيائي، كنت أسمعه يهامسها معاتبًا لكن ما من مجيب فعمِّي أحمد كان رجلًا هادئ الطباع يعمل محاسبًا بنكيًّا، لديه طبع هادئ وراضٍ بحياته، تشعر دائمًا بأنه مغلوب على أمره. جسده نحيل ومتوسط الطول، ملامحه سمحة وحليق اللحية ككل المصريين تقريبًا، لكنه كان دائم الابتسام لي والسؤال عن دراستي وسؤالي إن كنت أحتاج شيئًا.

كنتُ أحاول جهدي أن أركِّز في اختباراتي وسط هذا الكم من الفوضى الداخلية والخارجية، لم يكن الأمر هينًا. ذهبت لاختبار وأنا أشعر أني

لن أبلي حسنًا لكن بذلت جهدي وتمنيت من الله أن يوفِّقني. خرجنا جميعًا من الاختبارات حيث استوقفتني فتاة أثار فضولها لتتعرف عليَّ شيءٌ ما لا أعرف ماهيَّته، توقفت وابتسمت لها ابتسامة صادقة، وسألتني عن اسمي ومن أكون، أجبتها بهدوء، لم تكن تصدق أني مصرية فلم يكن ذلك باديًا على لهجتي أو ملامحي كان الأمر يعجبها وبدأت تنادي رفيقاتها ليتعرفن علي وانضم لنا لاحقًا بعض بعض الشباب.

في الحقيقة كنت أشعر بالحرج والخجل لكني كنت أريد قضاء الوقت خارج المنزل بعيدًا عن أبناء عمي وإزعاجهم، قادوني جميعًا إلى كافتيريا هادئة يدرسون فيها ويتبادلون مذكرات تلخِّص لهم المقررات، ويأكلون سويًّا ويبقون بها للدراسة طوال اليوم. للحقيقة كان ظهورهم في هذا التوقيت ملاذًا جيدًا لي. كانت هدى فتاة تضجُّ بالحياة، تحدثت معها عن جمال المكان وإن كانوا يأتون دائمًا إلى هنا حيث كان باديًا جدًّا أنهم معروفون في هذا المكان، أجابتني نعم فهذا هو ملجأهم حيث إنهم جميعًا يساعدون بعضهم في الدراسة ولا مجال للاجتماع ببيت أحدهم لكبر عددهم؛ لذلك يأتوا إلى هنا. أخبرتها أني سأنضمُّ لهم منذ اليوم وأعطيتها رقم جوال أعطاه لي عمي ورقم تليفون منزله لنستطيع التواصل.

ومنذ ذلك اليوم كنت أخرج في الصباح ولا أعود إلا مساءً. كان بيت عمي بالنسبة لي غرفة للنوم وتبديل الملابس، كان عمي يطمئن عليَّ من وقت لآخر بالجوال، وأخبرته عن المكان وعن الأشخاص، كان ينتظرني

كل مساء ليسألني كيف كان يومي وإن كنت درست جيدًا وهل من شيء ينقصني، كنت أخبره بأن الأمور بخير وبأني أشعر معهم بالانطلاق والألفة.

أتى الخميس المنتظر. ارتديت جينزًا أسود وجاكيت ورديًّا، صفَّفت شعري للخلف تاركة غرة على جبيني، لبست نظارة شمسية من شانيل مع بعض المكياج الخفيف. ذهبت للمكان المحدَّد في الموعد غير أني لم أجده، لم أشعر بالاستياء الكبير فلم يكن داخلي يقين يصدق أنه سيأتي ومع هذا انتظرت..

لم يخلُ الموقف من بعض المضايقات من باعة التحف والآثار المقلدة والتذكارات وكذلك أصحاب الخيول والجمال، ظنًّا منهم أني سائحة؛ فقد كانت ملامحي غربية بشرة بيضاء مضيئة وعيون عسلية تميل للأخضر تحت بريق الشمس المنتصبة في جوف السماء بكبرياء، وكنت قد قصصت شعري حديثًا وذهَّبت لونه، كانوا يطاردونني ظنًّا منهم أن حقيبتي تعج بالدولارات وكنت أعتذر منهم وأغير اتجاه نظري حتى يفهموا أني لا أريد. فجأة ظهر علاوي أمامي، كان جميلًا جدًّا، ملفتًا جدًّا، بدا كحلم، كبيت شعر خرج من قصيدة، لم يكن وحده، فقد كان بجواره شخص آخر مكتظ بالدهن تتدلَّى كرشه أمامه من ثقل ما بها.

صوت في رأسي من هذا!؟ لماذا يصطحبه معه في لقاء خاص كهذا!؟

صافحني ومشينا ثلاثتنا. كنت صامتة تعبث برأسي الظنون، كلي يحترقُ.. بعد خمسة شهور من الحرمان والألم والوجع، يأتي مصطحبًا

معه هذا الشيء الذي لا يكفُّ عن الثرثرة، فركت يدي بقبضته محاولة الخلاص من قبضه عليها ووقفت معلنة عن رحيلي بحجة الاختبارات وأعربت عن سعادتي بلقائه بعد كل هذه المدة..

أومأ برأسه لصاحبه كإشارة منه ليبتعد قليلًا ويعطينا مساحة من الخصوصية، ما إن ابتعد قليلًا حتى انفجرت في وجهه: لماذا تفعل بي هذا...!؟

رد عليَّ بهدوء متعمَّد: بمَ تشعرين...؟

قلت بانفعال: أنت تتعمَّد إهانتي بماذا يجب أن أشعر.. بالرضا؟!

نظر لي نظرة معاتب قائلًا: هذا هو نفس شعوري أمام أخيكِ في المطعم هل تذكرين؟

أُصبت بالخرس ونزف قلبي دمعتين سكبتهما عينايَ على وجنتيَّ المحترقتين غضبًا، مسحهما برفق وضمَّني له بقوة، وفي صدري بحر هائج وهمس في أذني: افتقدتك بشدة. كاد كلي يغادرني ليسكن تحت جلده بين ضلوعه في أوردته، شعرت بأن الجزء المبتور مني قد عاد أخيرًا، شعرت بدبيب الحياة في عروقي مرة أخرى، تنفست من جديد رغم كسرتي مما فعل، لم أكن أظن أنه قادر على حمل كل هذا

الحقد تجاهي في قلبه، يا إلهي إنه كالجمل لا ينسى ثأره.

انفصلنا عن هذا الآخر وذهبنا إلى أحد الكافيهات القريبة، كان صوت فيروز يملأ المكان سحرًا. جلست أمامه، كان يحدق في ملامحي

التي بدت شاحبة صفراء، وتسللت أصابعه مندسة بين أصابعي في رقة وشفتاه تهمسان:

أنت لي.

تلك الجملة التي أسقطتني فيه جملة واحدة في أول لحظة نطقها لسانه لي عندما سقطت عليَّ عيناه لأول مرة، كنت أحب هذه الكلمة جدًّا، كانت كصمام أمان تسكِّن لها روحي وتطمئن قلبي بأن كل شيء بخير. تمنَّيت لو أستطيع تقبيله، كان يتحدث وأنا أراقب شفتيه بصمت وتمعن، اشتهيت تدخين سيجارة، كنت قد طلبت فنجان قهوة وأخرجت علبة السجائر والقداحة من حقيبتي وأشعلت سيجارة بشكل عفوي، لم أنتبه أن هذه مرَّته الأولى التي يراني فيها أدخن، أخذ يراقبني أتنفس سيجارتي بلذة وشغف وينظر لي من خلف تلك الغيمة محاولًا جمع ملامحي الممزوجة بها، كنت أرى في عينيه إعلانًا عن شغف دب بكل أوصاله، كنت منتشية بنظراته بتلك التفاحة المنزلقة في نحره وهو يحاول بلع لعابه الذي سال حتى امتلأ تجويف فمه، ذابت تلك الابتسامة الأولى أمام سيل الرغبة.

ضعيفة أنا جدًّا أمام تفاصيل نحره بعروقة البارزة وتفاحته التي تركض صعودًا وهبوطًا كأنها تعزف على جيتار أو عود.. أكمل تلك المعزفة بصوته الدافئ الذي أطل بعد انقطاع طويا معلنًا عن حضوره بسؤال رقيق: تحبي تتمشي؟

أومأت برأسي نعم، وانطلقنا معًا تجاه المصعد الذي لم يكن به سوانا نظر كمن يرى في شحوبي محفزًا قويًّا لرغبته بي، اندفع تجاهي في قبلة عميقة وعنيفة بعض الشيء مما جعلني أظن أن شفتي جرحتا أو تورَّمتا قليلًا.

هبط المصعد بالجراج الذي كان فارغًا تقريبًا، كان يقبض عليَّ كمن ستلوذ منه بالفرار أنا التي كنت على استعداد كامل للوقوف أمامه كنصل عارٍ وأقول على حجم الشوق المنساب في دمي: هيت لك.. كلِّي لأجلك وحدك وإن لم أكن لك لن أكون لسواك. لكني تمالكت نفسي وخجلت من صوت رغبتي الصارخ داخلي ولزمت الصمت، كانت عيناه تطلان بالسقف والحوائط يتفحَّص المكان، فإذا بكاميرات المراقبة تطل من كل مكان، اشتد غيظه وأيضًا قبضه على معصمي، سحبني بجانبه قاصدًا الشارع، كانت هناك نسمة شتوية لطيفة تداعب خصلات شعري المنسابة على عنقي، كان يتحدث وأنا أسمع بإنصات. كنت أحب النظر إليه وهو يتحدث، أحب النظر لابتسامته وعينيه، وقفنا على الكورنيش حتى غابت الشمس.

همست: يجب أن أذهب؛ فقد تأخر الوقت. ضم رأسي إلى صدره ووضع قبلة خفيفة على جبيني

قال: حسنًا لا بأس سأوقف لك تاكسي.

ركبت التاكسي وغبت مع وداع رقيق لعينيه في زحام الطريق متوجهة إلى منزل عمي، في الليل تحدثنا قليلًا على المنتدى، لم يكن حديثًا طويلًا كان على سبيل الاطمئنان على سلامة وصولي ومدى جدي في الدراسة.

بقيت في مصر حتى نهاية اختبارات منتصف العام، لم نتواصل بعد ذلك اللقاء، لم أشعر بالفقد كما في السابق ربما لأني اعتدت منه الهجر الطويل وربما لانشغالي بالاختبارات ووجودي مع هدى والزملاء الجدد طوال اليوم، وربما لعدم توافر أي مساحة من الخصوصية للتفكير في أي شيء، كانت هذه الاختبارات الوحيدة التي قضيتها في ببيت عمي أحمد، والمرة الوحيدة التي أتيت فيها بمفردي إلى مصر، بعد ذلك كان أبي يرافقني في كل مرة.

الفصل الخامس

عدت إلى المملكة أخيرًا. وجدت السائق ينتظرني وحيدًا داخل السيارة، ربما كان يعاني الضجر من انتظاره لي، أخذ الطريق ثلث ساعة تقريبًا من المطار إلى المنزل، المنزل تفوح منه رائحة البخور والعطور، الجو العام يوحي بحفلة. كانت الروائح القوية تزعجني كثيرًا بسبب حساسية الصدر التي ابتُليت بها، كذلك كنت أعاني دوارًا وغثيانًا وألمًا حادًّا بأذني بسبب ضغط الطائرة، وضع السائق الحقيبة وخرج. وجدت أمي في طريقي قبَّلتني هامسة: اشتقت إليكِ حبيبتي.

فأجبتها: شكرًا أمي.. وأردفت قائلة: لماذا كل هذا البخور والعطور؟ ما الأمر؟

أجابت أمي باسمة: لدينا حفل عشاء على شرفك حبيبتي...

أجبتها مبتسمة ساخرة: شرفي أنا...؟ وغمغمتُ: أي أم هذه...! إن لم تكن تملك قلبًا يشعر بي ألا تملك عينين!؟

كظمت غيظي وقلت برفق: أنا مريضة ومرهقه جدًّا ولن أستطيع الحضور يا أمي أعتذر منك، يمكنك تأجيل الاحتفال ليوم آخر..

امنحيني بضعة أيام أستريح، فالحياة في مصر مرهقة جدًّا، فقد كنت محشورة في بيت عمي أخاف حتى أن أستحم فلم يكن هناك سوى حمامٍ واحد للبيت كله.

أجابتني أمي بانفعال مبالغ فيه: لا.. لا تفعلي هذا بي يا الياسمين. وانطلق صوتها كصافرة إنذار: يا محمد... يا محمد... يا محمد.

أجابها أبي من حيث هو: نعم يا فاطمة. وأتى مسرعًا وهو يجيبها: ما الأمر يا فاطمة؟ لم يكن قد رآني بعد، عندما وجدني أبي أمامه اقترب مندفعًا مرحبًا: يا الياسمين الحمد لله على سلامتك حبيبتي. وضمَّني له بقوة وحنان وطبع قبلة على جبيني، وأردف حديثه قائلًا: كيف حالك حبيبتي؟

أجبته مبتسمة: بخير الحمد لله. وسقطت في كرسي قريب مني من كثرة التعب،

نظرت أمي إليه باستياء من ردة فعله تجاهي وكأنها أرادته أن ينهرني فور أن يراني...

- يا محمد انتبه لي.. لقد جهَّزت لحفل عشاء على شرف ابنتك، والآن تعتذر وتقول لن تحضر الحفل..

أجابها أبي متهكمًا: أين ذهب عقلك يا فاطمة؟! ألا ترين كيف هي...؟ أجِّلى الدعوه إلى آخر الأسبوع واعتذري من ضيوفك.

أجابته بإصرار غير مبرر: لا يا محمد تستطيع ابنتك النوم من الآن حتى المساء، فالحفل في الثامنة مساء.

أردف أبي: يا فاطمة ما الأمر الجلل الذي سيحدث إن أجَّلتِ الحفل؟ اعتذري وأجِّلي الطلب في المطعم إلى الخميس القادم. ماذا يغضبك من أمر بسيط كهذا؟

قاطعته أمي بغضب: ولماذا ابنتك لا تسمع لي أبدًا؟ لماذا لا يعجبها شيئًا أفعله من أجلها؟ هي لا تحترمني وتستهين بكل شيء أفعله من أجلها...

- حسنًا يا أمي لا بأس سأحضر الحفل يكفي نقاش، سأذهب لأرتاح.

كانت الساعة العاشرة صباحًا، ذهبت إلى الحمام مباشرة وانزلقت في حوض الاستحمام المليء بالماء الدافئ، جلست فيه لمدة طويلة حيث إني لم أحظَ بدش كهذا منذ مدة طويلة. خرجت مرتدية بورنص حمامٍ أبيض وارتميت على السرير كمن لم تنَم منذ قرن من الزمن، غبت في نوم عميق لم أنتبه سوى على صوت أمي ينادي:

- هيا حبيبتي عليكِ أن تجهِّزي نفسك لم يعد سوى ساعة على حفل العشاء.

كنت أشعر أني في حاجة لأنام ثلاثة أيام متواصلة، لكن أمي ما كانت لتفهم هذا، لن تفعل سوى ما تريد. أحضرت لي أمي فنجان قهوة مع بعض البسكويت الحلو

وقارورة ماء.. كنت أشعر بالعطش والجوع الشديد فلم آكل منذ أمس، جلست في

السرير وتناولت قارورة الماء وشربت حتى ارتويت فقد كنت أشعر بالعطش كالصائم، تناولت البسكويت وأكلت قطعة وأنا أرتشف قهوتي معه وتناولت حبة من البانادول..

بعد برهة تزحزحت من السرير وثقِل رأسي يكاد يسقطني أرضًا، جلست على كرسي قرب النافذة وتناولت سيجارة دخنتها على مهل انطلقت بعدها للاستعداد للحفل. انتهيت سريعًا فلم أكن متكلفة بطبعي، كذلك أنا أعاني الإجهاد وما من طاقة أو مزاج لي لشيء، ذهبت للمجلس لاستقبال الضيوف.

ولعل أحدكم يتساءل أين أزواج هؤلاء النسوة رواد المجالس واللاتي تراهن نفسهن جميعًا في كل مكان تذهب إليه؟ كان حال الرجال كحال النساء يذهبن للمجالس والاستراحات التي كانت بمثابة الزوجة الثانية لبعض الزوجات فطوال الليل يجلس الرجال فيها يتسامرون ويدخنون الشيشة ويلعبون الورق أو الدومينو حتى الفجر ليعودوا إلى منازلهم منهكين يتحسَّسون الأسرَّة للراحة، أما العزاب منهم أو من يعانون مشاكل أسرية فينامون في الاستراحات معظم الأيام ويخرجون منها على الدوامات ثم يعودون إلى بيوتهم ويستيقظون في الجزء الأول من الليل وهكذا كل يوم.

بدأ الضيوف يتوافدون إلى المنزل، أمي تقف متألقه كنجمات السينما في شرف استقبالهم وهي مبتسمة وسعيدة، أما أنا فكنت أقف شبه نائمة، إلا أني كنت أتمالك نفسي قدر الإمكان. لم يكن هناك شيء ملفِت في الحفل سوى الخالة أم ريان التي دفعت بابنتها الجميله رولا تجاه أم فهد تستعرض حسنها علَّها تخطبها لولدها مما أثار غضب أمي كثيرًا. مر الحفل بسلام، كنت جالسة في أحد الأركان أقاوم النوم بصعوبة، تناولت العشاء في طبق بعيد عن الجمع حيث إني لا أحب النظر لأحد وهو يأكل منذ حادث المطعم مع علاوي.

بعد العشاء شربت كأسًا من الشاي المنكَّه بالهيل والقرنفل وشغلت أغنية أواخر الشتا لإليسا. كان الجميع يتبادلن الأحاديث الجانبية ويثرثرن، وكان هناك عدد لا بأس به يحاول إدارة حوار معي، منهن من تسأل عن حال مصر، ومنهن من تسأل عن أدائي في الاختبارات... وأنا أحاول افتعال ابتسامه ودود وأجيب على قدر السؤال حتى مللنني في النهاية.

خرجت إلى الحديقة للتخلص من هذا الجو الخانق حيث الهواء البارد يتسلَّل إلى صدري يعطيني إحساسًا بالحياة، كنت من محبي الشتاء والمطر رغم كونهما أكثر ما يصيبانني بالكآبة، لا أدري ما الشيء الذي يربطني بهما لكنهما يقعان في نفسي كنغمةٍ حزينةٍ لناي.

جلست في مرجوحة واضعة يديَّ تحت رأسي وأهز برجلي هزًّا خفيفًا، نظرت إلى السماء كانت تعج بالنجوم الصغيرة بشكل فوضوي جميل، والقمر ملفت جدًّا بالعمق. أغمضت عيني وأنا أحدق تجاه السماء، كانت أنفاس الشتاء تأتي مختلطةً برائحة الياسمين والسفرجل والرمَّان، تأتي معبقة بمزيجٍ متجانس مريح للنفس من العطور المختلطة التي أهدتها إياها أشجار الحديقة الممتدة والكثيفة.

كانت رائحة النسمات توجِّه لي دعوة طبيب نفسي للاسترخاء والتفكير بعمق، ربما تثير داخلي الحنين، كان كل شيء يدور حولي كأنه يتحرَّش بذاكرتي، سفرتي إلى مصر، علاوي، علاوي كان يطل من شباك ذاكرتي كأنه نجم هوى من السماء فجأة ليسكن صدري ويحتلُّ جسدي هذا الاحتلال الطويل، قُبله.. حديثه.. ضياعي في دخانه.. رعشات قلبي.. فهو رغم كل شيء حبيب الروح ومنى النفس.

تخيلت للحظة لو أني بُحت له بما دار في نفسي وقتها.. لو أني همست في أذنه المختفية خلف شعره الطويل: أشتهيك حد التعب، كل ما فيَّ يستفزه كل ما فيك.

ماذا سيكون رد فعله!؟ هل كان ليفهم حاجتي الملحة إليه!؟

هل كان ليفهم ضعفي وفقدي له!؟ أم كان سيحتقر ضعفي وينتقد جرأتي ويكرهني!

هل كان سيشبع رغبتي فيه!؟

أم سيعزف عني ويجبرني على الرحيل القهري.. ما الذي سيختاره!؟

هذا صوت أمي يتسرب إلى أذني: يا الياسمين.. يا الياسمين .

فتحت عيني وأجبت: هيا.. أنا قادمة. كانت أمي في وداع آخر الضيوف خروجًا عندما نادتني لأسلم عليها؛ فهي الغالية أم فهد ضيفة شرف الحفل، سلمت عليها وودعتها مفتعلة ابتسامة وانسللت في هدوء إلى غرفتي، فقد كنت أريد النوم بشدة. أخيرًا وصلت غرفتي أو ربما وطني الصغير الذي لا أشعر بأي أمان أو راحة خارجه.

نزعت فستاني وجلست على كرسي قرب النافذة وأمسكت رواية «الحب في زمن الكوليرا» مجددًا، التي كانت في حضن الكرسي هذه المرة منذ مدة لا بأس بها. بدأت القراءة من حيث توقفت آخر مرة، كانت شيقة جدًّا ومن النوع المفضل لي، كنت أتنقَّل بين الصفحات بفضول وشغف وسلاسة وكأني أحلِّق في عالم محبب إلى نفسي، كانت تعجبني البطلة جدًّا كما أني كنت دائمًا أتمنى لو أعيش في عصر رسائل الحب الورقية والنظرات المسروقة.

طفَت بسمة على السطح فجأة حيث وجدتني سعيدة بلا سبب وكأني تلك البطلة التي حظيت بعاشق لم يتنازل أبدًا عن حبها حتى بعد أن وصل ما يقارب سبعين خريفًا، هل علاقتي بعلاوي ستكون هكذا!؟

هل سأحظى بفلورنتينو أرثيا الخاص بي!؟ هل سيبقى هذا الحب الذي قارب عمره على الثلاث سنوات ليصل لعمر السبعين سنة!؟ في داخلي شيء ما يقول إنه ربما يبقى الحب لكن لن يبقى الحبيب، لكن سرعان ما صرفت الفكرة من عقلي فأنا أرفض تصديق أي شيء ينبئ بانفصالي عنه أو فقده.

كنت مجهدة جدًّا، مجهدة للدرجة التي ترهقني وتجعل جسدي كله محطَّمًا كما أن النوم لا يريد أن يزورني هذه الليلة على ما أظن، كان الأرق ضيفي طوال الليل، وضعت شالًا شتويًّا من الصوف الخفيف ونزلت إلى المطبخ لأعد فنجانًا من القهوه، كنت أشعر بالجوع أيضًا. جلست على طاولة المطبخ أحضر القهوة ثم وضعتها على النار وصنعت سندويشة من الجبن وجلست آكله وأنا أنظر من نافذة المطبخ إلى الجبل البعيد وكيف تحتضنه السماء بعظمتها وكأنها أمه الحنون، سمعت صوت قهوتي تفور، ركضت إليها وأطفأت النار، صببتها في فنجان وجلست أكمل سندويشتي، في كل الحالات لم أكن أرفض القهوة المغلية، كنت أتثاءب معظم الوقت ويبدو عليَّ الإرهاق والتعب. هاجس ما جعلني أشغل أغنية حبك وجع لأليسا ثم أخذت جوَّالي وعدت إلى الغرفة مع ما تبقَّى في فنجان قهوتي.

دخلت المنتدى أتصفَّح حين صُدمت بخبر وفاة والد علاوي منشورًا بأحد الأقسام في نعي مقدم من الإدارة العليا، وجميع الأعضاء يقدِّمون التعازي له.

همست:

ماذا!؟ هل مات أبوه حقًّا!؟

كيف لم يخبرني!؟ كيف لم يأتِ ليبكي على كتفي!؟

كيف لم يراسلني أو يتصل بي!؟ كيف لم يقل أحتاجك!؟

كيف لم يقل أي شيء حتى كأني لا أمثل له شيئًا!؟

أصابني الحزن والفزع. اتصلت به، كان الوقت متأخرًا جدًّا ربما كان نائمًا لكنه فتح الهاتف، سمعت أنفاسه تأتي ضعيفة متقطعة،

همست: علاوي هل أنت مستيقظ؟ أجابني: نعم. قلت: قرأت خبر وفاة والدك بالمنتدى، فسألني في تعجب: هل هناك نعي منشور في المنتدى؟

- نعم هناك...

- من نشر الخبر؟

- الإدارة العليا على ما أظن.

- لم أدخل المنتدى منذ مدة.

- أعلم هذا فأنا أتفحَّصُك دائمًا.. حسنًا أردت أن أقول لك البقاء لله.

في الحقيقة كنت أقولها وأنا أشعر بالاختناق والغربة عنه.

أجابني: حسنًا لا بأس.. لم أكن أريد أن تعرفي هكذا...

علَّقت: حقًّا! كيف كنت تريدني أن أعرف إذًا!؟

أجاب بصوت حزين: الوقت غير مناسب للنقاش ياسمين.

أجبته بهدوء مشفِقة على حاله: حسنًا علاوي كن بخير.

فهمس: إن شاء الله.. مع السلامة.

أغلقت الهاتف وأنا أشعر بانكسار في نفسه. كان علاوي شخصية لا تحب أن تبرز ضعفها تجاه شيء، كان معتدًّا بنفسه ذا شخصية قوية وحضور رجولي ملفت، قليل الكلام، باسم الوجه بملامح جميلة. في لقاءاتنا القليلة مقارنة بالمدة الزمنية التي قضيناها معًا لم أستطع تذكر أننا كنا نتحدَّث أكثر من ربع ساعة تقريبًا رغم طول اللقاء ونغرق بعدها في حوار صامت طويل، كان صمته مميزًا، كان لصمته صوت يصل لكل حواسي، كنت أفهم عينيه وتغيرات وجهه ونظراته وإيماءاته وطريقة تنفسه وإشاحات عينيه ووجهه وحركات أصابعه وانزلاقة تفاحة نحره صعودًا وهبوطًا، لم أكن أغفل شيئًا به قطُّ، كنت أذوب في تفاصيله أمتزج بها وكأني أدركها قبل ميلادي حتى كنت أنحلُّ داخله، فأنا هو وهو أنا، من يدري.

كان الروتين يأكل الأيام، لا شيء يحدث حتى ذلك الصباح الذي شعر أبي بوحدتي وكآبتي التي بدت تغير ملامح وجهي وتضفي عليها لمحة من الحزن، لفَّ يديه حول كتفي وضمني إلى صدره وقال: أترافقيني في رحلة عُمرة بعد غد؟

أعجبتني الفكرة جدًّا كانت بمثابة كوب ماء في نهار صيفٍ حارٍّ جدًّا، لكن على صعيد آخر أثار ذلك في نفسي حوارًا داخليًّا صامتًا، صوت يأتي من عمق بعيد في رأسي يهمس بصوت مختنق: كيف ستجدين خيطك الدقيق جدًّا إلى الله!؟

صوت آخر يرد عليه: لن أذهب إليه في بيته وأتعبَّد له وأطلب رضاه وكلي مشغول عنه بمن سواه!؟ لن أنافق الله، عليَّ أن أصفِّي روحي وذهني من كل حب سواه.

انتبهت على صوت أبي يزيح رأسي عن صدره برفق ينبهني أني لم أجب عن سؤاله حتى الآن، أومأت برأسي إيماءة خفيفة توحي بالموافقة على استحياء وفي نفسي صوت يردد حسنًا لينظر الله في أمري.

وقفت من مكاني واستأذنت من أبي لذهاب لغرفتي فقبلني وذهبت أتحسس خُطايَ إلى غرفتي، جلست في مكاني المفضَّل بالكرسي قرب النافذة وفي نفسي ما زال يطرق السؤال: كيف سأجد طريقي إلى الله؟

فعلاقتي بالله علاقة حب ليست علاقة ثواب وعقاب، فدائمًا ما ألاحظ أن عبادة الله في معتقد الجميع تتمحور حول فكرة الثواب والعقاب، فهم إما عابدون طمعًا في جنة الخلد وإما خائفون من عذاب النار، بينما أنا أعبده حبًّا وقناعة تامة به كإله لهذا الكون، أحبه حبًّا مطلقًا متحررًا من أي خوف، حبًّا لإله يستحق الحب، حبًا

منزَّهًا عن أي غرض أو مطلب، أندم على معاصيَّ وذنوبي لأني لا أريد أن أغضبه وليس خوفًا من عقابه أو غضبه، وشتان بين الاثنين، فهو الحب الوحيد الذي لا تختلف عليه أجزائي جميعها جملة، تحبه عيناي وشفتاي وأذناي وقلبي وعقلي وروحي وكياني... حواسِّي بكاملها تتهافت عليه، لا أريد الكذب على معشوقي الأكبر.

حدثت الله بصوت خافت: يا إلهي إنما أنت الحب وما من حب إلا منك، تملك القلب ولا أملكه، تلمس الروح ولا ألمسها، إن كانت الروح نفخةً من روحك فقد عشقته وفيه من بعضك قدر نفخة فهل هناك ضير من هذا العشق؟ هل يغضبك؟ ألا تحسبه لي عندك شيئًا من حبك؟ وإن كان يغضبك حبِّي له، فأنت تملك القلب في قبضتك فقلِّبه حيث تريد مشيئتك واختر له وجهةً تُرضيك، فما لي عليه من بعدك سلطان ولا أمر. يا كل كلي يا مالك القلب والفؤاد وخافق النبض اجعل خاتمتي بين يديك حسنة ورد روحي إليك ردًّا جميلًا.. أنت الحبيب وما من حبيب سواك إلا برضاك.

وتكوَّمت في الكرسي وسقطت عبرة خلسة على وجنتي وغفت عيني. انتبهت على جوَّالي يدق وكان الوقت متأخرًا جدًّا، تمتمت ما هذا الرقم؟! أجبت: ألو.. ألو. فإذا بأنفاس خافتة تطل من مكان بعيد خلف الهاتف، سألت: من أنت؟ قال: أنا فهد..

كان صوتًا رقيقًا مريحًا للنفس، مما جعلني أعدِّل من نبرة صوتي الحادَّة: من فهد؟

ألا تعرفينني؟! أنا الدكتور فهد بن ناصر.

- آها.. نعم مرحبًا بك.

- هل يزعجك لو تحدثنا قليلًا؟

- لا أبدًا.. لكن الوقت متأخر بعض الشيء.

- صوتك الناعس جميل جدًّا كلحن كروان ينشي القلب ويشرح الصدر.

شعرت بالحياء، وحاولت أن أبدو جادة:

- شكرًا لك.. أنت تحرجني بلطفك. لكن لم تقل ما الأمر؟

- ألا تحبين أن تتعرفي على زوجك المستقبلي قبل الزواج؟ ظننتك ستفضلين الحديث معي.

- زواج! زواج من!؟

- ما الأمر؟ ألم يخبرك أحد أني تقدمت لخطبتك رسميًّا اليوم؟

- ماذا!؟ هل فعلت هذا حقًّا؟

وقبل أن ينطق ببنت شفة استكملت كلامي مجهضة الكلمات في ثغره:

- حسنًا أعتذر منك عليَّ أن أنهي المكالمة حتى أتحدث مع عائلتي في هذا الأمر، ربما هناك سوء فهمٍ ما، وداعًا.

وأغلقت الهاتف دون أن ينطق الرجل بكلمة واحدة.

كانت الثانية بعد منتصف الليل، لم أستطع فعل شيء في هذا الوقت، كانت الفكرة مطروحة في البيت منذ مدة طويلة لم أتفاجأ كثيرًا، غير أني اغتظت جدًّا من عدم إخباري بالأمر. ذهبت للسرير ووضعت رأسي على الوسادة ونمت في نوم عميق

جدًّا أشبه بميتة قصيرة حتى الواحدة ظهرًا. كنت أعاني صداعًا حادًّا يقع في عيني اليمنى فقط، لم أستطع فتح عينيَّ جيدًا، تناولت حبتين من البانادول.. وذهبت إلى الثلاجة وأخذت قارورة ماء مثلجة وسكبتها على رأسي دفعة واحدة؛ علَّها تستطيع تخليصي من هذا الإحساس البغيض.

كانت عظامي مهشَّمة وكل عضلاتي تؤلمني كمن كانت تركض طوال الليل، صنعت لنفسي كوب قهوة ففنجان واحد لن يكفي للخلاص من هذا الصداع، صببت القهوة وأخذتها معي إلى الغرفة، لم أسمع أصواتًا في المنزل فلم يعودوا من دواماتهم بعد.

الفصل السادس

أخذت قهوتي إلى الغرفة معي، وذهبت أرتِّب حقيبتي للسفر، كانت حقيبة صغيرة؛ فالرحلة كلها لن تحتاج لأكثر من يومين أو ثلاثة. كنت أفضِّل القهوة باردة، انتهيت سريعًا وجلست إلى المكتب أرتشفها بهدوء، كما فتحت المنتدى أتصفحه أيضًا وكالعادة دائمًا كان أول شيء أشاهده هو موضوعات علاوي، هل هو موجود؟ هل كتب شيئًا جديدًا؟ وجدته قد كتب خاطرة يقول فيها:

أين أنتِ حبيبتي..

كيف لي أن أصلكِ

كل المدائن دونك مقبرة

كل المضاجع دونك شوك

تبًّا لتلك الشفاه التي أطعمتني خمرها

فما عاد يرضيني من نساء العالمين خمر.

وكأنما كلماته سقطت بذورها في رحم قلمي ليولد منه خاطرة وليدة لحظتها فكتبت:

أحبك وأعرف كيف أجدك

فلا تسألني ماذا ولا كيف

ففي كل الأشياء شيء منك أحب

أحبك في تساقط حبات المطر

ذبيحة على الأرصفة في الشتاء

أحبك في هروب العشَّاق للبحر في الصيف

في انسجام الفصول الأربعة

في تخاصُمها في تواليها كل عام

في عتمة الليل، في رائحة الصبح

في صبغة الشمس لعاري المرمر

في لسعة ملح الماء لكرْز الشفاه

في لذَّة انسياب واقي الشمس على الرخام

في تلك الدمعة الحائرة بين الحزن والفرح

في ضياعي ما بين الجرأة والحياء

وأنا أكتب عنك

في صقيع ذاك الشاطئ بالصباح

في أسراب النورس جزر بيضاء فوق الماء

في مزاجية البحر

في جورية لثمت شفتيَّ وأخبرتني عنك

في قارورة عطر لم توضع إلا لك

في سرِّ وجودك داخلي رغم البعد

في همسات لم تكتب إلا لك

في غزل الحروف كلمات عشق

في صراعي بين قوتي وضعفي

في جنوني في عقلي في نار شوقي

في خدري في سقوطي صارخة: يكفي

في جحيم قربك، في يتم بعدك

في صراخ أنثى لا تشتهي غيرك

في موت الأمان ووحدة الهجر

في ابتسامة ودمعة

في نقاء القلوب

في كثرة الذنوب

في سقوط القمر كل ليلة

في ستار الماء والثرَى

مقبرة تحوي ألف مقبرة

أحببتك تاريخًا طويلًا من الشوق

علِّمني كيف أجدك بلا قرب.

نشرت الخاطرة وانتظرت بعض الوقت أملًا أن يقرأها علاوي ويرسل لي رسالة، لكنْ مر الوقت ولم أحظَ بشيء منه. انزعجت وأصابني اختناق وغضب وملل وأغلقت الجهاز وارتديت ملابسي وخرجت للحديقة. كنت قد سمعت أذان العصر منذ مدة، كان الجو لطيفًا، جلست في مرجوحتي وأنا أراقب اللاشيء أحاول التخلُّص من غضبي وشعوري السيئ. بعد وقت غير بعيد بدأ الجميع يعود من الدوامات، لاحظت أمي حين عودتها للمنزل وجودي في الحديقة فنادتني: الياسمين متى استيقظتِ؟

- منذ بعض الوقت.

- حسنًا حبيبتي تعالي.. لقد اشتريت غداء من المطعم.

- حسنًا أنا قادمة.. ألن نتظر أبي؟

- اتصلت به.. هو على الطريق.. خمس دقائق ويصل إن شاء الله. تعالي رتبي السفرة.

- حسنًا يا أمي أنا قادمة.

دخلت المطبخ حيث وضعت أمي أكياس الطعام على الطاولة،

أخذت في وضع الأطباق وتعبئتها بالطعام، أعتقد أني وضعت لكل فرد حصة تكفيه، ذهبت إلى غرفة الطعام وفرشت سفرة بلاستيكية على الأرض ووضعت الطعام وأشعلت المكيف والتليفزيون. وبعدها ذهبت لأمي وأخبرتها أن الغداء جاهز فأجابتني: حسنًا حبيبتي تفقَّدي إخوتك وساعديهم في تبديل ملابسهم وغسل أياديهم.

أجبتها: حسنًا أمي.

وما إن ابتعدت خطوتين حتى نادتني مرة أخرى: الياسمين.. اتصلي بوالدك. أومأت برأسي حسنًا. تناولت هاتفي لأتصل بأبي حين ظهر عند الباب فجأة:

أبي كنت أريد أن أتصل بك.

- ها أنا حبيبتي. وأخذني تحت ذراعه وقبَّل رأسي، واصطحبني معه إلى غرفته، جلس على كرسيه وهو ينظر في ملامحي يتفقدها، ابتسمت له وقلت متعجبة: ما بك يا أبي!

بادلني الابتسامة وقال: متى كبرتِ إلى هذا الحد!؟

تحولت ابتسامتي لضحكة مرتفعة الصوت، وقلت :عندما كنت في الدوام يا أبي.

ضحك لي بحب، ناولته الخُفَّ وذهبت لأدعه يبدِّل ملابسه حين قابلت أمي على بعد خطوتين من باب الغرفة.

- الياسمين.. هل عاد أبوكِ.

- نعم عاد.

- حسنًا أحضري لي ليمونة وعلبة زبادي من المطبخ، وتعالي لتناول الطعام.

كانت غرفة الطعام غرفة بسيطة بها سجادة تغطي الأرض كاملة ومجلس أرضي بسيط وشاشة تليفزيون.. هذا كل شيء. جلسنا أرضًا لتناول الطعام، وأتى أبي، كانت هناك إيماءات وإشارات متبادلة بين أمي وأبي، أكاد أعي ما خلف إيماءاتهما إلا إني تجاهلتها عمدًا؛ حتي يجدا طريقهما إلي. عادة ما آكل ببطء شديد حتى لا أصاب بالقيء، كنت أنظر في طبقي وأخلط كميات قليلة من الطعام وأتناولها ببطئ حين قاطعني صوت أمي: الياسمين...

وجهت نظري إليها وأجبت بهدوء: نعم.

- يريد والدك أن يحدثك في أمر ما.

ابتسمت لها برفق: وهل يحتاج أبي لوساطتك ليتحدَّث معي!

انفرج ثغر أبي في ابتسامة رقيقة تحولت لضحكة خفيفة كذلك أمي ابتسمت ابتسامة ناعمة جدًّا لتظهر صفين من الجمان المصفوف بإحكام وتناسق.. كانت ابتسامتها جميلة جدًّا.

قالت: أنتِ لن تتوبي أبدًا عن طريقتك هذه معي.

ابتسمت قائلة: حسنًا أمي لا تغضبي. ما الأمر؟

رد أبي مجهضًا الكلمات في ثغر أمي:

- لقد زارني أبو فهد والدكتور فهد ولده أمس يطلبان خطبتك...

نظرتُ في طبقي في صمت، فلم يكن هناك أحد يعلم بأمري مع علاوي، بعد برهة همست: حسنًا أبي وبعد...

- لا شيء حبيبتي ما رأيك في الأمر؟

ابتسمت بتهكُّم واستخفاف وسألته متعجبة:

- وهل تظنني قادرة على العيش في مثل هذا البيت!؟

أجابني: لمَ لا حبيبتي؟ ما الذي ينقصك؟

أشحت بوجهي عنه بعد نظرة عابثة، وقلت:

- قد أنهيت طعامي أستأذنكما. ونهضت أريد العودة إلى غرفتي حين خرج صوت أمي غاضبًا مرتفعًا تلقي باللوم على أبي: يا محمد...؟

أجابها أبي بنبرة حادة وعصبية: ماذا يا فاطمة؟ اصبري. ما مشكلتك! لمَ كل هذه العجله؟! لن يهرب فهد.. ولن تبور الياسمين إن لم تتزوجه. اصبري.

لم أسمع صوت أمي بعدها... ربما خافت من نبرة أبي الحادة التي لم تعتدها أبدًا منه؛ فغالبًا ما كان رقيقًا جدًّا معها، نادرًا ما كان يثور أو يغضب لكن غضبه لا تُحمد عقباه. خُيِّل لي وجه أمي أحمر مختنقًا

بالدم وعيناها ممتلئان بالدموع وتعض على شفتها السفلى وتلهو بطبق الطعام وهي ناظرة إليه وتحاول ألا تبدي حزنها. أما أبي فغالبًا ما سيذهب إلى المجلس ويدخن سجائره وهو غارق في صمته إلى أن يهدأ وبعدها سيذهب ليراضي فاطمة توأم روحه وشريكة عمره.

كان أبي هذا المهندس المصري المغترب الذي قابل تلك الحسناء السورية في بيت والدها صاحب محل البخور السوري المقيم في السعودية منذ زمن ميلادها، انبهر بجمالها الهادئ وطلَبها للزواج واعجبت أمي بأخلاقه ورقة طباعه وحلاوة كلامه وبشرته الحنطية وعينيه الزرقاوين وشعره الناعم المنسدل على عينيه كما أنه كان عريسًا مناسبًا من الناحية المادية.

كان أبي عاشقًا جيدًا، متيَّمًا بها، يدللها ويلبي طلباتها، نادرًا ما رأيتهما يتشاجران.. كانت تحبه وتفهمه وترعاه، وجد فيها ما يعوضه عن يتمه ووطنه وغربته، اغتنى بها عن كل شيء، كانت نعم الوطن، نعم الحبيبة والزوجة، إلا أني كنت أجد بها عيبًا خطيرًا جدًّا، كانت متسلطة غير صبورة أبدًا، ومكلفة في طلباتها. أتذكر أنه ذات مرة دار حوار بيني وبين أبي حول ذلك الأمر وسألته كيف يتحمَّل طلبات أمي الكثيرة جدًّا والملحة وعدم صبرها وتسلُّطها هكذا...

ابتسم لي ابتسامة لطيفة وقال: أمك كريمة من بيت كريم مدللة أبيها ما رفض لها يومًا طلبًا قط من أين ستتعلم الصبر، أما فيما يخص طلباتها فما دام الحال ميسورًا فلا بأس بإسعادها، فهي لم تتأخر علي يومًا فهي شريكة العمر يا حبيبتي وأم الياسمين، ألا يشفع هذا لها يا ابنة قلبي.

كنت في ذلك العمر أتمنَّى أن أحظى بزوج كأبي كنت أراه كاملًا لا عيب فيه ولا نقص، ربما هذه هي نظرة كل بنت لأبيها، كان عليَّ أن أحاول النوم قليلًا حتى أستطيع السفر في رحلة العمرة، فالرحلة من الشمال إلى مكة طويلة جدًّا ومرهقة. حاولت النوم، كان نومًا متقطعًا مضطربًا لكن لا بأس به.

انطلقنا مع الفجر، كنت أجلس إلى جانب أبي هذه المرة، توجهنا قاصدين مكة، كان كلانا جالسًا بجانب الآخر يبحث في عقله عن حوار أو جملة يفتح بها قصة فهد مجددًا، وفي داخلي كنت أتمنى أن يكون أبي قد فهم أني أرفض هذا الزواج جملةً وتفصيلًا، وتمنَّيت في قرارة نفسي ألا يسمع لأمي بهذا الشأن وينسيا أمر زواجي الآن.

كانت نظرات أبي تشي لي بما يدور في رأسه، أردت أن أخلِّصه من هذا الثقل الكبير على صدره، قلت له وأنا أنظر إلى الطريق عبر زجاج النافذة المغلقة بجواري:

- أعلم ما يدور في نفسك، أنا لا أعاند أمي يا أبي كما تظنان، أنا أرفض فكرة الزواج من فهد أو غيره الآن، كذلك أمي دائمًا ما تتناسَى أننا لسنا أبناء حقيقيين لهذا المجتمع، ربما لأنها ولدت وعاشت هنا فلا تعرف لها مكانًا غيره وربما لأنها تشبههم إلى حد كبير في طريقة تفكيرهم ونظرتهم للأمور.. لذلك لا أجد لها عذرًا إن وافقت على هذا الأمر، لكن أنت ألا تدرك تلك الفجوة بيني وبينهم؟ هل سيتكيف فهد معي، مع مزاجيتي وطقسي النفسي الرديء طوال الوقت!؟ هل سأتحول إلى آلة تفريخ أجنَّة وأجلس عمري أنتظره حتى يعود من الاستراحة آخر الليل!؟ أنا أختلف كليًّا وجذريًّا عن فهد وعن عائلته، قد أجاري أمي حتى لا تغضب، لكن لن أضع نفسي في مكان أقضي فيه طوال حياتي أفعل أشياء لا أحبها ولا أجد نفسي فيها فقط لأرضي الآخرين.

كان أبي ينصت لي بتمعُّن، لم يقاطعني ولم يقل شيئًا سوى: خيرًا إن شاء الله.

كان الطريق طويلًا جدًّا وصوت القرآن يطل علينا من سمعات السيارة، كنا نتوقف في الاستراحات المنتشرة على طول الطريق للصلاة أو لقضاء الحاجة وشراء الأطعمة والمشروبات وتزويد السيارة بالوقود. الرحلة طويلة على أبي والقيادة أمر مرهق جدًّا.. كنت أشفق على شيبته من طول الطريق، لم ينشأ بيني وبين أبي حوار طويل بعد ذلك سوى الأسئلة البسيطة على شاكلة ماذا تأكلين؟ هل تريدين القهوه؟ هذا النوع من الأسئلة..

كان مؤشر السيارة يشير إلى فراغ البنزين، كنا نأمل أن نجد استراحة قريبة لكن السيارة توقفت وما من شيء يبدو لنا قريبًا، اتصل أبي بالشرطة وأخبرهم عن موقعنا وجلسنا في السيارة منتظرين حتى أتت سيارة الشرطة وزودتنا بما يكفي من البنزين لنصل أقرب محطة، تعاملوا مع أبي برفق واحترام، شكرهم أبي وانطلقنا إلى أن وصلنا الميقات بعد سفر دام تسع ساعات كنا نحرِم من ميقات أبيار علي بالمدينة المنورة؛ حيث إننا قادمون من جهة الشمال. عندما وصلنا انفصلت عن أبي لأتوجَّه إلى مغاسل السيدات، اغتسلت وبدَّلت ملابسي وصليت ركعتين بنية الإحرام للعمرة. جلست في مكان منتظرة اتصال أبي، أذَّن العصر وأنا جالسة، صليت بالميقات وما أن انتهيت حتى اتصل أبي يخبرني أن آتي إلى السيارة لنكمل رحلتنا تجاه مكة..

كان أبي دائم التسبيح والتلبية بعد إحرامه وأنا أحيانًا أستغفر وأحيانًا أسبِّح، المسافة من المدينة إلى مكة تقريبًا خمس ساعات، غفوت في تلك المسافة ولم أشعر بها أيقظني أبي عندما وصلنا، ذهبنا إلى فندق قريب من الحرم، استأجرنا غرفة مزدوجة ووضعنا حقائبنا ونزلنا مباشرة لقضاء مناسك العمرة حتى لا تحرقنا الشمس والزحام صباحًا. كان الوقت قد أصبح في الواحدة بعد منتصف الليل، توضأنا في الفندق وخرجنا قاصدين الحرم، دخلنا ساحة الكعبة وبدأنا الطواف. كان في نفسي ألف حديث لي مع الله، ألف طلب وألف رجاء، وجدتني أبكي بلا سب وفي جوفي فيض من الكلمات. سألته رحمته

ومغفرته، سألته راحة القلب وسعادة العيش، سألته حسن الخاتمة، سألته كل شيء إلا علاوي، كنت أخجل منه، كنت أخجل أن أسأله أن يرزقني حبًّا سواه، كنت أعلم إنه يرى ما في صدري ويعلم حاجتي وضعفي تجاه علاوي، كنت أعلم أن رغبتي وشغفي تجاه علاوي سيشتعلان بمجرد أن يلمع طيفه بذاكرتي، بمجرد ذكر اسمه ربما كان هذا ما أخشاه تحديدًا، أن آتي على ذكره فأخرج من تلك الحالة التي أتحسس فيها طريقي إلى الله. كانت المناسك مرهقة خاصة أننا لم نرتَح، لكن لا بأس فالفوز برضا الله وغفران ما سبق من الذنوب أمر يستحق التعب من أجله.

استغرقنا حوالي ساعتين في تأدية المناسك، وبعدها أوصلني أبي إلى الفندق، وطلبنا الطعام وذهب ليتحلَّل من إحرامه وأنا أيضا تحلَّلت بقص أطراف شعري والاستحمام، لبست بيجامة وجلست في السرير أنتظر أبي حين غسطت في نوم عميق جدًّا، فلم أشعر به عندما جاء ولم أنتبه لصوت العامل وهو يقرع الباب ليحضر الطعام، لم يوقظني أبي حتى الساعة الحادية عشر صباح اليوم التالي. صليت الصبح قضاء، كنت جائعة جدًّا، كان أبي قد وضع طعام أمس في ثلاجة الغرفة إلا إني لم أشتهِه؛ طلبت طعامًا طازجًا وقهوة تركية وجلست في كرسي قريب من السرير، كانت تبدو على أبي علامات التعب والإرهاق حين قال: أريد اللحاق بصلاة الظهر في الحرم.

قلت له: أنت منهك لمَ لا تصلي في الفندق فمكه كلها حرم؟

قال: يا حبيبتي من يدري هل ستسعفني الأيام لآتي هنا مجددًا!

قاطعته فزِعة: أطال الله عمرك يا أبي.. إن شاء الله.

دق الباب، كان العامل قد أحضر الطعام والقهوة، أكلنا وتوضأت وبدلت ملابسي وخرجنا لساحة الحرم، دخلنا وجلسنا نقرأ القرآن حتى وقت الأذان. صلينا الظهر وجلسنا في رحاب البيت وربه ندعو ونستغفر إلى أن أذن العصر، صلينا وانطلقنا إلى الفندق لنجمع أغراضنا للرحيل حتى لا تدركنا شمس غدٍ على الطريق. لم أشعر بالطريق تقريبًا؛ كنت نائمة طوال الوقت إلى أن وصلنا البيت، كانت روحي هادئة وقلبي به سكون مريح للنفس. أسقطت ملابسي وذهبت للحمام، اغتسلت ولبست ملابس فضفاضة وأرخيت جسدي فوق السرير. كنت أطرد أي تفكير بعلاوي، ففي حلقي غصة من تذكُّره الآن، كان رأسي أشبه بقِدر كبير تقبع في قعره بيضة نعامة، أشعر بثقلها في رأسي، تتدحرج يمينًا ويسارًا..

بحثت عن سيجارة في مكان ما فوجدت علبة في إحدى حقائبي اليدوية، أشعلتها وأنا أجلس على حافة سريري ملقية برأسي الثقيل للخلف على وسادة صغيرة، كنت أشعر أن أنفاس الدخان تعبئ ذاك الفراغ في رأسي، تصنع غلافًا جويًّا مناسبًا يجعل تلك البيضة تطفو فتقيني شر ارتطامها بجدار جمجمتي. أطفأت سيجارتي وأمسكت برباعيات جلال الدين الرومي، تصفحتها بشكل عشوائي حين سرق

عيني عنوان بخط عريض: أتعرف ما الليل؟ أرخيت عيني للأسفل قليلًا لأعرف الجواب فقرأت:

هو ما يميز العشَّاق عن الغرباء

خاصة هذا المساء..

حيث حلَّ القمرُ بالدار

إني ثمل والقمر عاشق والليل مجنون

البارحة أراد معشوقي الهجر

وقال بكل قسوة، ابتعد عن روحي

اليوم وكأنِّي فُصلت عن روحي

أغسل وجهي بدم الهجر.

وقعت الكلمات في نفسي وقعًا كئيبًا جدًّا وكأنها ضغطة قوية على جرحٍ حديث لم يلتئم بعد، انفجرت في البكاء حد تقطُّع أنفاسي وارتفاع صوتي، وسقط سيل من الدموع على وجنتي أحرق جفوني، لم أكن أعرف لماذا أبكي، هل كنت أبكي بسبب هجر علاوي لي أم بسبب هجري الله؟

ماذا يدور في نفسي، أنا لم أعد أعرف ذاتي! أين تلك الطفلة منِّي؟ أين أنا؟ أنا لا أعلم شيئًا، لا أفهم شيئًا، ما قضيتي؟ ما جرحي؟ لماذا هذا الصراع الذي يلتهم كُلِّي، يأكل كل جميل وبسيط داخلي؟ ربما أمي

معها حق عندما قالت الجميع هم الطبيعيون أنت من تعاني مشكلة.

هدأت نفسي بعدما بكيت وشعرت أن ما من شيء من هذا الثقل في جوفي.. كل شيء قد انتهى... قد رحل.

استيقظت في اليوم التالي مع الفجر، كان الجو هادئًا، شعرت في نفسي برغبة في النزول للحديقة، أردت أن أتمشَّى فيها، غصت داخلها إلى بعد عميق حين رأيت تلك الطفلة ابنة العشرة أعوام تبكي بشدة وقدمها تنزف وعالق بها قطعة زجاج ملطخة بالدماء وتصرخ بكل طاقتها وما من مغيث، على الجانب الآخر شاب في العشرين من عمره حسن الطلَّة نحيف وطويل يحاول المرور من بين سور صنع من جريد النخيل ليسعفها. وقفت مسمَّرة مكاني وهو يحاول الانزلاق ويركض نحوها، أمسك كفها الصغير بين كفيه ونظر لها بتمعُّن وقال لها: اهدئي لا بأس ستكونين بخير أعدكِ. هدأ البكاء وتحول لأنين، سألها: ما اسمك؟

قالت: الياسمين.

- ما الذي كنتِ تفعلينه هنا؟

- كنت ألعب.

وفي أثناء الحديث نزع قطعة الزجاج ولف قدمها بغترته.. وحملها قاصدًا المنزل.

كانت ممتلئة الجسم قليلًا طويلة الشعر جميلة العينين، تمسكت

بعنقه بقوة، وأنفاسها تلهب أذنه بعفوية وجسدها الدافئ يستفزُّه؛ فتوقف فجأة، ظنته قد تعب فجلس ليستريح وهي في حجره لكن بعد برهة أخذت تشعر بقلبه ينتفض وسخونة ما تنبعث من جسده المتعرق وقطعة حجر استقرت بين فخذيها الصغيرين، كانت يده تنساب على جسدها في لمسات غير بريئه، هاجم ثغرها الصغير بقُبلة امتلأ فيها فمها الصغير بلعابه، ثم حشر شيئه المنتفخ في فمها عنوة دافعًا رأسها فوقه بكلتا يديه حتى كادت تلفظ أنفاسها الأخيرة ثم فجأة رأى وجهها المختنق، فسارع بالابتعاد عنها تاركًا إياها تسقط أرضًا وأخذ يساعدها على التنفس حتى تقيأت واستجمعت ما بقي من قواها وركضت خوفًا منه..

ركضت متجاهلة ألم قدمها وجسدها الذي أوشك على مفارقة تلك الحياة قبل دقيقتين وأخذت تتقيأ بشكل جنوني وما من شيء يبقى في جوفها، كانت معدتها تلفظ كل شيء حتى الماء، كادت تشارف على الموت حتى نصح أحدهم أباها بالسفر بها إلى الأردن، فالطب هناك أفضل بكثير. أخذها الأب المفطور القلب الذي لا يعلم ماذا حدث لابنته، كيف يتسلل الموت إليها من بين يديه وهو عاجز، لن يسمح للموت بسرقتها منه. بذل الأطباء جهدهم في علاجها، تحسَّنت حالتها قليلًا عندما ألزمها الأطباء بأكل كميات قليلة جدًّا وببطء شديد جدًّا حتى لا تصاب بالقيء.

كنت أعرف تلك الطفلة جيدًّا.. كانت تسكن في قبر قصي داخلي، لا أتذكرها ولا أريد تذكُّرها، غير أني أعلم بوجودها دائمًا.

أصابتني قشعريرة وخوف ارتجف على أثرها جسدي كله الذي هو الآن أكبر بثلاث عشرة سنة.

ركضت عائدة للمنزل، وكأن أحدهم يطاردني، وكأني أفر من ذئب جائع يركض خلفي. ألقيت بنفسي بعمق على سريري، والتحفت غطائي وأنا أرتجف كمحموم، أستعيذ بالله كمن رأى شيطانًا، وأنا على تلك الحال دق الهاتف. كان علاوي يطل عليَّ من خلف الشاشة، أجبت بصوت محشور مختنق:

أين أنت؟ لماذا تتركني هكذا؟ أنا خائفة جدًّا، كم أنت قاسي القلب.. أكرهك..

أتى صوته هادئًا دافئًا: سآتي إليك غدًا.

وأغلق الهاتف.

ثار صدري كبحرٍ غاضب، أي نوع من العشاق هذا؟! لعنت كل شيء، احتضنت هزائمي وجزعي في نفسي وذهبت في نوم عميق.

أتى اليوم التالي ممتلئًا بالرتابة والكآبة، لم أعد أؤمن بشيء وما من شغف تجاه شيء.. ها هو علاوي على مسافة خطوات مني إنه في حديقة المنزل، اندفعت تجاهه كمن يدفعها أحدهم من الخلف في ضمة طويلة، كنت أرجف بين ذراعيه.. أفتقده.. وأحتاجه لأختبئ داخله من قذارة هذا العالم لأحتمي به.

قال: حسنًا لا بأس أنا هنا الآن حبيبتي اهدئي، لم أركِ مهزومة إلى هذا الحد من قبل.

ابتسمت له ابتسامة باهتة، وقلت له: لا شيء أنا بخير.

فهمس: أفتقدك كثيرًا، تعالي نجلس قليلًا.

- حسنًا.

جلسنا في مكان لا يرانا الداخل أو الخارج من المنزل، كان يحدِّق في تفاصيلي.. وأحدق فيه. كان حزينًا شاحبًا.. يبدو كمن يحمل همًّا ثقيلًا على صدره، أمسكت رأسه وضممته إلى صدري وقلت:

- ما بك؟ ليذهب العالم إلى الجحيم..

سمعت صوت أنينه، كنت أعلم أنه يبكي، لكني لم أشأ النظر إليه، لم أشأ أن أرى ضعفه؛ لن يحب ذلك. وضعت رأسي فوق رأسه، وقلت: لو كان الأمر بيدي لوضعت العالم كله تحت قدميك ولا أرى طيف الحزن في عينيك لحظة.

قال: أنتِ لا تعرفين.. أنا كافر بكل نساء العالمين سواك، غير أني مكبَّل بعجزي

بقبليتي.. بضعفي...

لم أكن أستبين ما سبب كل هذا الضعف؟ ولا أدري ما الذي يخفيه خلف تلك الجملة التي أشعر بها مرت في صدره كحدِّ سيفٍ شقَّ في

طريقه للخروج جرحًا عميقًا لن يصلحه رتق. رفع رأسه عن صدري ونظر لي نظرة خِلتها نظرة مودِّع

والتقم شفتيَّ في نهَمٍ وعنف، وكان يمسك بي بقوة كان يأكل أجزائي بجوع شديد، يمسك جسدي بعنف.

همست: علاوي.. أنت تؤلمني. علاوي...

كان كما المغشَى عليه لا يسمع صوتي وأنا أستغيث وأستحلفه أن يكف عني. كانت علامات أسنانه وأصابعه قد غطت عنقي وذراعيَّ وصدري وبطني وفخذيَّ وكل مكان وقع عليه مني، بالأزرق الذي يميل للسواد، تمالكت نفسي وصفعته على وجهه بكل قوتي ليكفَّ عني، كنت أرجف وأبكي كطفلةٍ ضائعة، صرخت في وجهه: أترى ما فعلت؟ ما بك!؟ متى تحولت إلى حيوان؟

اعتذر بخجل وطأطأ رأسه ورحل، رحل مكفنًا حلمي معه، حاملًا جثته على كتفه، تاركًا أثرًا بغيضًا في نفسي.. غير أني لم أكرهه لم أستطع إيقاف حنيني إليه أو إدماني عليه؛ فهو حبي الأول.. وسري الأول ورغبتي الأولى، هو نقطة تحوُّلي من طفلة إلى أنثى.

الفصل السابع

كان أبي قد أخبر أبو فهد برفض طلبه متحججًا بأن الياسمين ترفض الزواج قبل إكمال دراستها. اتصلت أم فهد توبِّخ أمي وتلومها على الموقف المحرج الذي وضعت فيه أبو فهد وولدها فهد، كانت أمي تعتذر منها وتحاول تقديم تبرير مناسب للموقف، لكن أم فهد أبت أن تقبل بذلك وحصرت علاقتها بأمي في حدود العمل الرسمية.

كان الوقت يمر ثقيلًا على نفسي، كنت أرفض أن أكون قد فقدت علاوي في هذا اللقاء الكئيب، كنت أتتبَّع أخباره لا أعرف عنه شيئًا، كنت أنتظر اتصالًا أو رسالة أو أي شيء منه يخبرني به أننا لم ننتهِ هنا. ذات يوم نشرت خاطرة كان اسمها عاشقة وبدوي.. كانت تقول:

دعني ولا تتعجَّل

إن أردت أن يكون اسمك هو النقش الوحيد

على كامل صفحة المرمر

أن يكون لقربك لسعة الفودكا

وهدوء النبيذ الأحمر

أن تكون مدينة الحب الأولى

التي لم يكتشفها من قبل عاشق أو مغرم

فأنسى تاريخ القبائل وشريعتك بالحب

وكل الفضائل والرذائل

ففرض العشق لي أنا

أعلِّمك فيه كيف التهجد والسجود

كيف الكلمات ترتل

كيف تنظمها نظمًا جديدًا

فتنهار أمامك كل الحصون والسدود

لتخرج أنوثتي رويدًا رويدًا

من معتقلها البعيد..

فتغير خارطتي ألف مرة في الليلة

وتعيدها من جديد

لا تفكِّر كيف تهواني

ولا كيف تقتحم قلاعي

ولا كيف تُنهي حضارتي

لتبني مجدك على أنقاضي

فعزف بسيط

قد يحيل جنوني فيك حريقًا

فالحب ليس درسًا للقراءة

ولا حرفًا في الأبجدية جديدًا

ولا لقاء غرام يلتحم في الليل فيه العاج بالرخام

لتزهر مع الصبح الرياحين

الحب هو ذاك الكائن الغريب

الذي نندفع فيه بجنون عاصف نحو الخطايا

فكل ذنوبه فضائل وكل فضائله ذنوب

فإن أردت أن تتعلَّم كيف الهوى

فابدأ من حيث خلقت على الفطرة الأولى

إلى أن تنهي فيك تاريخ القبيلة والثريد.

لم تمر دقائق على نشر الخاطرة حتى وجدت أول تعليق، كان لعلاوي، كان مختلفًا ومميزًا وشجاعًا لم أعهده منه. كانت كلمات قليلة، لكن ربما كانت هي كل ما أريد، فكتب قائلًا:

يا ياسمينة القلب والروح

لو كان الأمر بيدي

لجعلتك لي..

الوطن والقبيلة والخبز والثريد.

كانت كلماته بمثابة طوق نجاة أرسل لغريق أوشكت روحه على الخلاص.. ثم خيَّم الصمت على كل شيء... لم تعد بيننا مراسلة كما في السابق، أو بالأحرى لم يعد بيننا شيء، صمت كل شيء، لا اتصالات ولا تنبيهات رسائل نصية، ولا رسائل إلكترونية ولا أي شيء إلا ذاك الخيط الدقيق الذي يقول إنه لن يتخلَّى عن حبي، عن عمري الذي مضى وأنا لا أرى سواه.

بعد مدة طويلة وشهور كُثر عانيت فيها كلَّ ألوان الضعف والخذلان دقَّ الهاتف مجددًا، كانت قد ماتت اللهفة منذ زمن بعيد، لم يعد رنين الهاتف يثير فضولي، أنام كثيرًا وأدخن كثيرًا وأقرأ كثيرًا، وأعاني الكآبةَ والعزلة لدرجة أن أمي ظنت أن عليها أن تأخذني للرقية عند شيخ وصفته لها إحدى رفيقاتها في العمل..

دق الهاتف، هذه المرة أجبت وأنا مغمضة العينين لا أدري من المتصل، توقعت أن يكون أبي أو أمي، فتحت الخط وأجبت برتابة فإذا بأنفاسٍ تعرف أذني وقعها جيدًا، نظرت للشاشة إنه علاوي. خفق قلبي بسرعة حتى كدت أشعر أنه سينفجر في صدري، لم أجد صوتي ولا لغتي، توقَّف لساني في حلقي، فإذا بصوتي يقطع حشرجة الصمت في حلقي المختنق:

أردت أن أخبرك شيئًا، أعرف مقدمًا أنك لن تسامحيني عليه أبدًا.. لكن اعلمي إني مجبر...

علمت حينها أن هناك كارثة حقيقية ستقطع آخر أمل لي معه، همس بصوت مختنق: سأتزوج...

قالها وشعرت أني أفقد وعيي، ورأسي أشبه بدوامة تجذبني لأقصى عمق، وأرى حولي كل أحداث قصتنا، خيِّل لي أنه كان يتحدث بعدها عن مرض أمِّه ويعطيني مبررًا لكونه مرغمًا على تلك الزيجة. ولا أدري هل حقًّا قال هذا أم أن عقلي الباطن اختلقه ليعيد لي بعض التوازن حتى لا أفقد عقلي أو روحي في تلك اللحظة المميتة. سمعت عبارة: هذا ما أردت قوله وأتمنى أن تسامحيني. وأغلق الخط وأنا أضحك بشكل هستيري وأبكي بكاء العاجز، بكاء المظلوم، لا أعرف على ماذا كنت أبكي، كانت قصة معقدة جدًّا للدرجة التي تصيبني بالاكتئاب طوال الوقت، لم يكن عاشقًا جيدًا، على ماذا كنت أبكي تحديدًا: على سنوات العمر، على حب استنزف طاقتي جملة، على استباحة قلبي جملة، على جسد أنهكته الحاجة، أو ربما على عقل عانى صراعًا حادًّا، أم على سنوات من الضياع فيه..

أقطِّر فيها التفاصيل الصغيرة والذكريات، فأجدني كنت أقتات فيها على فتات صدقته عليَّ بلقاء أو اتصال أو رسالة، كيف أعطيته كل هذا الحب مقابل لا شيء؟! كيف سرقني مني وهرب؟

كفرت بعده بكل شيء، كفرت بالحب، كفرت بالصدق، كفرت بالحياة. كنت كلما عانيت حنينًا إليه، أُحدِث قطعًا عميقًا في جسدي أو بالأحرى في بطني مكمن الشهوة مستعملة شفرة حادة، كنت أذهب للمشفى في حالة إغماء، وأحجز فيها لمدة تحت الرعاية الطبية. وصل عدد الجروح في بطني إلى تسعة جروح حتى ذاك الجرح الذي وصل لأكثر من عشرين غرزة، كان يبدو كجرح ولادةٍ قيصرية كافٍ لإخراج جنين من بطني أو ربما يزيد عن الحاجة. حينها قرر الطبيب أن يودعني بمصح نفسي تحت الرعاية المشددة، وأوصى بأنني ربما أعاني حالة اكتئابٍ حادٍّ وميولٍ انتحارية.

في نفسي أنا لم أكن أريد الانتحار، إنما كنت أصنع صيغة جديدة لاستقبال جسدي لذكرى علاوي فيربطها بألم حاد ليكف عن تذكره على أنه مكمن اللذة، كنت أريد أن يرفضه جسدي، كنت بطريقة ما أعاقب جسدي ليكفَّ عن اشتهائه. لم يكن هناك أحد يفهم ما يدور في نفسي، لم أكن لاحكي شيئًا لأحد، كنت صامتة صمتًا اختياريًّا حتى خيِّل لهم أنني فقدت النطق..

كنت أرفض العيش لا حبًّا في الموت، إنما رغبة في عقاب نفسي التى لا تريد التوقف عن حبه، قضيت شهرًا بالمصح النفسي ميتة على قيده. كانوا يعطونني المهدئات معظم الأحيان، كانت معدتي تلفظ الطعام فلا تسمح لي بإدخالها، كان طعم المرارة يملأ حلقي، كانوا يعطونني

الفيتامينات والمحاليل ليضمنوا عدم انهيار جسدي. مر الوقت وأنا وحيدة غريبة حتى استقرت حالتي، وخرجت على مسؤولية

الأسرة، خرجت مع تسعة جروح قطعية في خصري، جروح محفورة بإتقان، ذكرى أبدية لألم.

ما زالت غرفتي بترتيبها السابق، غير أنها نظيفة ومرتبة على غير عادتها، الروايات المترجمة تملأ الرف العلوي للمكتبة، كانت تغازلني رواية جديدة تقع في جانب الرف وحيدة غريبة عن الأخريات، أمسكتها بيد مرتعشة لأرى الغلاف، اسمها مختلف مخيف: «ظل الريح» كارلس زافون، كنت قد طلبتها من جرير، يبدو أنها تأخرت في وصولها قليلًا عن زمان القراءة فسكنت الرف تعاني الوحدة والغربة، فرواية بحجمها لم تكن تعرف أبدًا أنها ستسافر كل تلك المسافة لتسكن الأرفف الباردة دون لمسة مشتاق للقراءة، وشغف قارئ يلهث وراء الصفحات ليتعرَّف إلى تلك الحسناء الشيقة..

تركتها مكانها والتففت خلفي، أخذت أدقق النظر في ملامح أمي وأبي، كانا قد كبرا كثيرا جدًّا وكأني تركتهما منذ عقد كامل أو عدة عقود.. كانت ملامح أمي تبدو شاحبة جدًّا ربما فقدت أكثر من عشرة كيلوجرامات من وزنها، بدا لي أنفها أطول، ووجنتيها باهتتين، وعينيها أكثر بروزًا، وشفتيها أنحف، كذلك أبي، يا إلهي أين ذهبت ابتسامته وملامحه البشوش؟ أصبح كمن غرق في بحيرة من الحزن كست كل ملامحه. ماذا حل بهم؟ لمَ هما صامتان إلى هذا الحد المميت؟

كان إخوتي خائفين مني، ظانين أني سأؤذيهم، ابتسمت لأخي وأردت لمس وجهه فقد بدا أسمن قليلًا من السابق، أشاح بوجهه عني وتشبث بثوب أمي خوفًا، وهذه أختي ربما لم تعد تتذكرني أصلًا. يا إلهي هل أنا من فعل كل هذا بهم؟ كيف سمحت لي أنانيتي بسرقة السعادة من تلك العائلة؟ شعرت بالذنب.. رأيتني أشد قسوة من علاوي، لم أكن أعرف تصرفًا صحيحًا أفعله لأعيد لهذا البيت الحياة..

خرجنا من الغرفة جميعًا لتناول الطعام كانوا صامتين جدًّا.. أنهيت طعامي وانسحبت في هدوء عائدة إلى غرفتي، أحاول التخلص من هلاوسي وإحساسي المميت بالذنب، فقررت قراءة «ظل الريح».

كانت رواية تحمل من الغموض ما يحتاج لاستحضار عقلك كاملًا حتى لا تفقد الأحداث، كانت مجهِدة، قرأت جزءًا لا بأس به لكني شعرت بالإرهاق فوضعتها جانبًا. كانت تمطر في الخارج، كان المطر يبعث في نفسي الكآبة والحزن ويثير فيَّ حنينا لكلِّ ما مضى، لم تعد عينايَ قادرة على البكاء حتى لو رغبت فيه، لو كنت في حاجة إليه؛ فقد تحجَّرت الدموع في عيني، أضفى لها ذلك لمحة عميقة جدًّا من الحزن الدائم..

كان قد مرَّ زمن طويل لم أدخن سيجارة، لم أسمع أغنيه، لم أقرأ كتابًا أو ديوان شعر، كانت الغرفة بمثابة دعوة لتجربة كل شيء من جديد، انتكاسة جديدة لإدماني عليه من جديد. على جانب آخر الجميع يتعامل معي بحذر شديد، يختارون بدقة تصرفاتهم

وألفاظهم، يبعدون إخوتي عني، يبعدون أي شيء يظنون أني قد أؤذي نفسي به، فقد أخبرهم الطبيب أن لديَّ ميولًا انتحارية واضطرابات نفسية وأني عُرضة لانتكاسة في أي وقت؛ لذلك لا بدَّ أن يكونوا حذرين في التعامل معي.

لم أكن مريضة نفسية قط كنت مريضة عاطفية، غير أن أحدًا لم يكن يعلم شيئًا عن هذا، احتفظت بسري في عمق بعيدا جدًّا في نفسي، لم أخبر به أحدًا قط. مرت الأيام مرورًا رتيبًا مملًّا هادئة هدوءًا بغيضًا، كدت أنسى أن هذا البيت يسكنه بشر ما زالوا على قيد الحياة، حتى جاء هذا اليوم الذي شعرت فيه بجوع شديد. ذهبت إلى المطبخ أبحث عن شيء آكله، فأخذت تفاحة وأمسكت سكينًا صغيرًا، لأقطعها.. حين رأتني أمي وأنا في المطبخ ممسكة السكين، أصابها الذعر والخوف وأخذت تصرخ على أبي..

كانت تظن أني سأؤذي نفسي بها، ألقيت السكين على طاولة المطبخ ونظرت لها بتهكم: أمي أنا لست مجنونة.. لا داعي لكل هذا الهلع. اهدئي لن أؤذي نفسي أو إخوتي أو أي شخص آخر، دعي الحياة طبيعية رجاءً، فما تفعلونه هو ما يؤذيني حقًّا.

كان أبي وإخوتي ينصتون إلى حواري معها، ألقيت التفاحة في سلة القمامة وخرجت من بينهم قاصدة غرفتي. بعد مدة غير بعيدة أتى الجميع إلى الغرفة، كنت واقفة أراقب الخارج من خلال النافذة، طوقت أمي ظهري عاقدة يدها حول خصري ملقية برأسها على كتفي،

وهي تتمتم: آسفة حبيبتي، كنت قلقة عليكِ فقط، عليكِ أن تفهمي أننا جميعًا نحبك، وأن مرضك قتلنا حزنًا عليكِ.

أجبتها:

لا بأس يا أمي أنا أفهم ذلك، عليكِ فقط أن تعرفي أني شفيت من ضعفي ولن أعود لإيذاء نفسي مجددًا، ولن أؤذي أحدًا منكم.

التفتُّ فوجدت وجه أمي مشرقًا بابتسامة عميقة لم أرَها منذ قدومي لهذا البيت: هل تعدينني حبيبتي؟

- نعم أعدك يا أمي.

ركض إليَّ أخواي ليضماني. كنت قد افتقدت قربهما، نزلت لهما على الأرض وأخذت أضمهما وأقبلهما وهما يبتسمان.. همست في أذنيهما: لا تصدقا أي شخص مطلقًا يوهمكما بأني قادرة على إيذائكما. ابتسما لي وأشارا برأسيهما: حسنًا.

أخذتهما أمي وانصرفوا، وها أنا أقف أمام أبي منفردين بعيدًا عن الجمع، في عينيه ألف سؤال لكنه لا يفصح عن شيء. شعرت بحاجة ملحة لاحتضانه، فألقيت بجسدي على صدره وشددت وثاق ذراعيَّ حول خصره، كان يربِّت على كتفي في هدوء وحنان. قال:

- إن لم أستطع حمايتك في السابق فاعلمي أني لن أسمح بأذاك مجددًا أبدًا.

وضعت يدي على شفته أوقفه عن الكلام، وهمست:

- أنت لم تقصر أبدًا في حمايتي يا أبي.. دائمًا كنت لي أبًا وصديقًا وحبيبًا، كنت دائمًا صورة الرجل الأولى في ذهني، كم تمنيت الزواج بمثلك، أحب الرجال الذين يشبهونك، أبحث دائمًا فيهم جميعًا عنك. لم تقصر أبدًا معي.

وضع قبلة مهزومٍ على جبيني وخرج وهو يتمتم: كنت...

بعد هذا الحادث، عادت الحياة إلى البيت شبه طبيعية، ربما يشوبها بعض الحزن غير المعلن لكن أصبح في البيت حياة على الأقل.. أسمع أخويَّ يتشاجران حول ألعابهما، وأسمع صوت صراخ أمي عليهما ليهدآ، ونقاشات أمي وأبي حول الدوامات وزملاء العمل وثرثراتهم عن أم فلان وأبو فلان...

الفصل الثامن

تعاقبت الأيام إلى أن استيقظنا جميعًا ذات صباح على صرخة عالية أرعبتنا جميعًا، صرخة واحدة يتيمة، كان صوت أمي. ذهبنا إلى الغرفة وجدناها تفترش الأرض بجسدها، أخواي يمسكان بها ويبكيان ويناديانها، وضع أبي رأسها على قدمه وحاول إيقاظها، اتصل بالإسعاف، صوت سيارة الإسعاف يطل علينا من الغرفة المطلة على الطريق. نزل أخواي ليدلوهما على غرفة أمي حيث جسدها الممدد، حملوها ورحلوا وركض أبي وأخواي خلفها بينما تكوَّمت أنا عند باب الغرفة

أدقق النظر في الأرض، كان وجهها أمامي تبدو على ملامحه السعادة، وابتسامة ساحرة أشرق معها جُمان فمها، وفي عينيها نظرة حب ورضا، كانت تبدو لي قد غادرت الجسد الملقى على الأرض، كانت تشير لي فاتحة ذراعيها، وكانت رائحة عطرها الثمين تملأ المكان. بدا لي جسدها الأنثوي الرشيق الذي يفترش الأرض يطفو خارج نفسه في انسيابية وروعة، كان شعرها البني الناعم الذي يصل لنصف فخذيها يغطي نصف شقها الأيمن ونحرها الطويل يلمع به عقد دقيق من الذهب الأبيض يتدلَّى من منتصفه قلب صغير تلمع في جوفه ماسة صغيرة استقر بين ترقوتها.

بقيت أراقبها لوقت لا بأس به حتى سمعت رنين الهاتف، فتحت الخط فإذا بصوت أبي يأتي حزينًا باكيًا:

ماتت أمك.. ماتت فاطمة، رحلت وتركتني وحيدًا. وانهار في البكاء.

أشحت بنظري إلى حيث كنت أراها، فلم أجدها لم أجد جسدها، مشيت أتحسَّس المكان حيث كانت، أتلمَّس الهواء بيدي ربما تصطدم بها... لكن لا شيء.

وجدت ثوبها القطني الخفيف ذا اللون الزهري الفاتح الذي كانت تفضِّله كثيرًا، تلمَّستُه بيدي، كان نائمًا في حضن كرسي بجانب خزانة الملابس، كان يعبق برائحتها الخاصة، برائحة المسك المحلول بماء الورد الذي كانت أمي تصنعه خصيصًا لتعطر به جسدها ورائحة الياسمين الشامي عطرها المفضل، كان لجسدها رائحة مميزة وشهية جدًّا، كانت تعطيها طابعًا مميزًا، كنت أشعر بالخدر في حضنها. جلست على سريرها محتضنة الثوب، لم أستطع البكاء..

كان الحزن قد أخذ منزلًا عظيمًا في صدري فلا دموع تستجيب لنحيب قلبي ولا صوت أنين، فقط ألم وألم... وسلسلة طويلة من التساؤلات العقيمة: لماذا رحلت بتلك الطريقة؟ لماذا لم تقل إنها سترحل الآن؟ لماذا لم تعلمْني كيف أعيش بدون وجودها؟

كنت أود لومها... كنت أريد إجابات لكل سؤال داخلي: كيف وجدك

الموت؟ من أين لمدلَّلة مثلك بنزيف في المخ؟ كيف وجدك ليقتلك؟ أنت المتألقة دائمًا، كنت دائمًا على موعد مع الحياة فكيف خنتِها هكذا بلا مقدمات وواعدتِ الموت؟ ماذا ستجدين هناك لم تجديه مع الحياة؟ عشتِ ملكةً ومتِّ متألقة.

أتساءل ما سر هذا المنزل المعزول عن المدينة المحاطة بحديقة تمتدُّ لكيلو متر بمحاذاة الطريق تحفُّها أشجار النخيل والكافور على امتداد الطريق؟ ما سر العلاقة الغامضة بينه وبين الحزن؟

لم تكن أمي رحيمة بموتها هكذا فجأة؛ فقد سرقت روح أبي معها، عاش كميتٍ على قيدها وهذان الصغيران من سيرعاهما؟ أنا!؟ أنا العاجزة حتى عن الاهتمام بنفسها في أي شيء كيف أهتم بطفلين معلقين بثوبي وكأني طوق نجاتهم، كأني الأمان الوحيد لهما في هذه الحياة؟ أنا التي لا أملك أي أمان لذاتي، سقطتُ فجأة رواية ظل الريح، وفرَّت ورقاتها أمامي إلى أن التقطتها.. فإذا بعيني تقع على تلك الكلمات:

«اتعلم ما هو أكثر شيء أذكره عن أمي يا فيرمين؟ عطرُها. كانت رائحتها توحي بالنظافة، بالخبز الذي يخرج توًّا من الفرن، كانت لها رائحة كل الأشياء الطيبة في العالم، حتى لو كانت تعمل طوال اليوم في الحقل أو ترتدي المئزر لأسبوع، وضعْ في بالك أنها كانت فلاحة وجاهلة وتجدف بالآلة كحمَّال المرفأ، لكنها كانت تشدو بعطر الأميرات».

رددت هامسة: نعم كانت تشدو بعطر الأميرات...

مات كل شيء جميل في هذا المكان، كان لا بدَّ أن نغير المكان، نغير المدينة، نغير الدولة بكاملها. سافرنا إلى مصر لقرية بدائية، هي بلد أبي، عشنا في شقة خاصة ببيت جدي إلى أن ينشئ أبي منزلنا الخاص. كان الجو العام يناسب أبي، فقد وجد هنا بعض الصحبة القديمة وبعض الذكريات التي تلفته بعيدًا عن ذكرى أمي التى تعتصر قلبه حزنًا، فهناك دائمًا ما يشغله عن التفكير، هناك دائمًا من يوجد في مجلسه ويتحدث معه ويؤنس وحشته، كان دائم الجلوس مع أقاربه وأصدقائه أو ممسكًا مصحفه يقرأ كلام الله، كان مُقلًّا في الوجود داخل البيت.

كنت أهتم أنا بشأن أخويَّ الصغيرين، تعلمت الطبخ قليلًا، أنشأت صفحتي الخاصة على الفيس بوك، أكتب قصاصتي عليها على قطع ورقية صغيرة بخط يدي وأنشرها، كانت فكرة مبتكرة لاقت استحسان الكثيرين، أشعر أني شفيت من إدماني على علاوي، ويبقى طرق ذاك السؤال داخلي: لماذا هو بالذات؟

سؤال طالما كنت أقف عاجزة أمامه، ربما تحتاج إجابته لعشرات الصفحات البيضاء ومئات السطور الممتلئة بهذا الكم اللانهائي من الاحاسيس التى لا تجد كلمة واحدة على تعدُّد الألسنة واللغات في هذا العالم لتصفها.

كذلك أبي يحاول التعافي من حزنه على أمي، وأخواي يركضان في مواجهة الحياة ببراءة وثقة، أحاول أن أزرع فيهما قوة وثقة واعتمادًا على النفس تجعلهما قادرين على مواجهة الحياة وحدهما دون حاجة إلى حماية أحد؛ فالحياة معركة شرسة جدًّا لا أحد يعلم من سيخسر فيها في الأزمنة القادمة.

أما أنا فالخسارات المتتالية لحياتي في النهاية جعلت منِّي شخصية مختلفة كليًّا عن تلك التي بدأت، إن الأزمات الكبيرة سلاح ذو حدين قد تجعلك قويًّا قادرًا على التكيف والابتكار والتميز، وقد تجعلك شخصية ضعيفة هشَّة تلجأ إلى الحيل النفسية للتكيُّف مع المجتمع بضراوته..

بعض البشر مقدر لهم أن يولدوا مرتين: مرة من أرحام أمهاتهم ومرة أخرى يولدون من رحم المعاناة. ولسنا جميعًا متساوين في القوة والقدرة على التحمل والتعامل مع الأزمات الكبرى، لذلك نجد أنماطًا مختلفة من البشر بعد الخيبات المتكررة، نجد المدمنين والمهزومين والمنتحرين والمضطربين نفسيًّا والملحدين والكافرين بكل شيء، الكافرين حتى بوجود الله، وهؤلاء هم الفئة الهشَّة التي قبلت الحلول الأكثر سهولة والاستسلام المطلق لضعفهم، وبصراحة هم ليسوا في حاجة إلى من ينصحهم أو يتَّهمهم، هم فقط يحتاجون بشكل كبير لمن يرفق بهم ويعيد إليهم الثقة بأنفسهم ويأخذ بأيديهم دون يأس من

إصلاحهم مهما كانت حالتهم، ففي النهاية هم لم يخلقوا هكذا، هم ضحايا.

ومن نفس ذاك الرحم الذي وُلِد كل هؤلاء المنبوذون يولد أيضًا ناجون ربما لم يعودوا نفس الأشخاص السابقين، لكن تلك الخيبات صقلتهم وشكَّلتهم شخصيات جديدة أكثر قوة وأكثر ثقة وأكثر تميزًا من ذي قبل، إنها المعاناة وحدها هي التي جعلتهم يكتشفون قوتهم الحقيقية ومدى تميزهم وقدرتهم على المواجهة بل وابتكار الحلول أيضًا. كنت أريد أن أزرع فيهم معنًى واحدًا هو أن الأبطال الحقيقيين هم الذين يستطيعوان شق طريقهم بنجاح وقوة في مواجهة هذا العالم بكل بشاعاته، كنت أريدهم أن يؤمنوا بذواتهم ويعلموا أنهم هم الأبطال فقط إن امانوا واجتهدوا..

في داخلي لم تكن مئات الخواطر المبعثرة على الإنترنت ما بين المنتدى والفيس بوك كافية للخلاص من علاوي والنجاة من مرضي به كنت أدرك أني أكتبه في كل حرف.. في كل كلمة.. في كل جملة أو خاطرة يلدها قلمي، في كل رأي أو تعليق كان يسكن كل موسيقا أو أغنية أسمعها، كل رواية أقرأها، كل كلمة مؤلمة أو رقيقة أجدها أمامي، كل مشهد عاطفي في فيلم سينمائي، كان وجهه وابتسامته تنبت في كل شيء: في الوسادة الخالية جانبي، في عتمة فنجان قهوتي، في صفحات المواقع الإلكترونية، في بياض دفاتري، في مرآتي، في الكرسي الخالي بجانبي، في وجوه كل من يمرون حولي. وفي لحظة ما تملَّكني شعور عميق جدًّا

جعلني أمسك بقلمي وأكتب، أكتب كل الأحداث وكل التفاصيل وكل الخيبات والهزائم وكل فرح وابتسامة... وكل خوف وخذلان.. كل شعور أخذ مني، كانت الكلمات تنزلق من دمي لا أستطيع التوقف، كنت كمن تهذي بلسان قلم، كالممسوسة لا يوقف هذياني سوى حاجة أحد أخويَّ إليَّ..

لم يكن لي سابق عهد بكتابة الرواية ولا أستطيع أن أجزم حتى الآن أن ما كتبت هو رواية أم لا، لكن وجدت هنا مساحة أوسع في الحديث عن تجربة أرهقتني.

الفصل التاسع

الجو الهادئ والأليف للقرية الصغيرة الذي وجد فيه أبي الأنسة والأصدقاء ووجد أخواي لهما فيه الصحبة والرفاق في المدرسة واللعب ساعدهم على الاندماج والتكيف سريعًا وتخطي كل ما مررنا به من مآسي وأحزان.. أما أنا فلم أكن معتادة على التكوين الاجتماعي للمجتمع الريفي، لم أكن معتادة على الأسئلة الدقيقة التي تناقش أدق تفاصيل حياتي، لم أكن معتادة على الزيارات المنزلية المفاجئة لجارتي التي ربما تكون بشكل ما عمَّتي؛ فالقرية مترابطة بشكل كبير ومتشابك. كانت غرفتي في البيت ذات إطلالة جيدة فكانت لي نافذة تطل على شارع جانبي قبالة بيت مكون من طابقين أظن أنه غير مسكون فهو مظلم دائمًا وأخرى تطل على مساحة واسعة من الأراضي الزراعية الخضراء يتوسطها القمر ليلًا، يزورها عند منتصف الليل كروان ذو صوت ملائكي حزين، كنت أشعر أنه يغني لي وحدي، كنت أعتبره صديقي الوحيد هنا فيأتي ليؤنس وحدتي وغربتي التي باتت جزءًا مني مغروسة داخلي أو ربما معجونة بي، كانت نسمات الليل تأتي نقية تنعش الصدر والحواس كأنما للمرة الأولى أتنفس فيها، كان

لأنفاس الهواء طعم مختلف، نكهة أخرى لم أعتدها في هواء المملكة الجاف، نكهة تنشي العقل والروح، ومع أنفاس الفجر الأولى تشم رائحة الأزهار مختلطة برائحة التربة السوداء بعد المطر لتأتي خفيفة ممزوجة بإتقان كعطر بارسي.

كنت أجلس على كرسي قرب النافذة كل ليلة أنتشي بهذه الخلطة السحرية التي أهدتها لي الطبيعة أستمع للموسيقا وأكتب خواطري وقصاصاتي على صفحات هذا العالم الأزرق. العالم الازرق... يا إلهي إنه أشبه بثقب أسود يلتهم الوقت والمشاعر يأكل العمر والعلاقات ويمنحك في المقابل الوهم.. الوهم فقط: مشاعر وهمية، وأصدقاء وهميين، ومعجبين وهميين، واهتمامًا وهميًّا.

أي جنون هذا الأزرق الذي يأخذ منا كل ما هو حقيقي فينا ليمنحنا الوهم ونحن سعداء، في ظاهر الأمر يبدو أننا المستخدمون له لكن في حقيقة الأمر هو من يستخدمنا، من يسرق مشاعرنا وأعمارنا وذكرياتنا ليستعملها كمادة رخيصة للربح.

لا أدري ما الذي جعلني فجأة أتذكر المنتدى القديم يا إلهي هل ما زال موجودًا؟ هل ما زلت أحد أعضائه؟ مرت بضع سنوات منذ آخر مرة تواجدت فيها على صفحاته. أخذت أبحث عنه في جوجل حتى وجدته

وسجلت الدخول فأنا لم أنسَ يومًا الاسم المستعار والرقم السري اللذين حصلت عليهما ذات رسالة نصية من علاوي. كان وقع الاسم في نفسي كانفجار بركان، يوجد كم هائل من الرسائل هنا، تساءلت في صمت ودهشة من قد يهتم لأمري لهذا الحد؟! ضغط أصبعي على الجرس الخاص بصندوق الرسائل وقلبي كان يتسارع نبضه كما كان يحدث وأنا في السابعة عشرة، أشفقت على نفسي، ووضعت الهاتف جانبًا وأغمضت عيني ووضعت يدي على قلبي وأخذت أهمس في أذنه:

حسنا لا تجزع نحن بخير لتهدأ أيها المسكين، أما زلت عالقًا به بعد كل هذه السنوات، بعد كل هذا الخذلان؟! أي سحر أسود صنعه لك هذا العلاوي.

بعد دقائق شعرت بنبضي قد عاد لسيرته الأولى، تنفست بطيئًا كما لو أني أردت أن أمنح نفسي فرصة للتفكير، وسألتني داخلها: هل حقًّا أريد أن أعرف من المرسل؟ هل حقًّا أريد أن أقرأ الرسائل؟ ربما سيفتح هذا باب الجحيم من جديد، باب العذاب البغيض الذي أكلني سابقًا، عليَّ أن أفكر جيدًا قبل أن أفعل أي شيء قد أندم عليه مستقبلًا. ذهبت إلى المطبخ لأصنع لنفسي فنجانًا من القهوة وأدخن سيجارة فأنا أشعر بجزع. وأنا في الطريق وجدت أبي جالسا أمام التليفزيون يتابع الأخبار، ذهبت له وتكورت كالقطة في صدره ابتسم لي ومسح على جبيني بلطف وهمس: متى ستتوقفين عن الحزن يا حبيبتي؟

أدرت وجهي إليه وابتسمت له وأجبته برفق: من قال إني حزينة يا أبي؟

أجابني: أنت قطعة مني يا غاليتي، كنت تكبرين أمامي يومًا بعد يوم أحببتك كثيرا جدًّا وتعلقت بك أكثر من أخويك، لك في قلبي مكانة عظيمة لم يحظَ بها أحد سواكِ، رغم أنكِ لستِ بكريَّ ولا خاتمة ظهري لكن الله زرعكِ في قلبي ومنحكِ منه الشأن العظيم، ولا أعلم لذلك سرًّا غير أن هذا هو رزقكك من قلبي.

- أتعلم يا أبي عشت معكم طوال حياتي لكني لم أعرف أحدًا منكم قط! أنا بالفطرة أحبك أكثر من الجميع.. كنت دائمًا تدعمنى وتقف في صفي وتدلِّلني وتحنو عليَّ، لهذا كنت أحبك أكثر من الجميع...

توقفت للحظة ثم أردفت بصوت مختنق: أكثر من أمي حتَّى، لا أعلم لمَ كانت علاقتي بها متوترة لهذا الحد الكبير، أتذكر الكثير من الحوادث التي مرت في صغري كان تصرف أمي معي فيها عدائيًّا للغاية.. لماذا؟! ؟ لا أدري. لو كان هذا طبعها معنا جميعًا لما تأذيت لكنها كانت تعامل أخويَّ بحنان كبير، كنت أشعر بابتسامتها مختلفة عندما تجلس معهما، كانت تلعب معهما كأنها طفلة في العاشرة، أتذكر ذات مرة كنت ألعب أمام المنزل وحيدة كزهرة نبتت في غير أوانها حتى نال مني الحر والتعب عندها ذهبت أطرق باب المنزل بعنف وما من مجيب حتي خرجت لي أمي مغتاظة غاضبة من طرقي المتتالي فنهرتني

وصفعتني على وجهي وجرَّتني إلى غرفتي وحبستني فيها.. ولا أعلم أي ذنب اقترفت لأعاقب عليه، هل يعد طرق باب منزلي جريمة تستوجب العقاب في شرع أمي؟

دمعت عينا أبي وأنا أتحدث معه لم أنتبه إلا عندما بللت دمعاته وجنتيَّ. نظرت له وسألته: هل غضبت مني؟ أعتذر منك أعلم كم كنت تحبها. أصدقك القول رغم كل ما كان بيننا من عدم توافق إلا أني دائمًا أتذكرها في صلواتي وأدعو لها بالرحمة. أشعر أني فقدت جزءًا من روحي برحيلها لم أكن أعلم أني أحبها، فقد كانت دائما تسيء فهمي، ولطالما كنت أجدها متسلطة لحد بعيد.

مسح أبي دمعاته وضمَّني إلى صدره بقوة وشهق كمن فوق صدره حجر وهمس: سامحيها يا حبيبتي.. سامحيها علَّها تكون سامحتني...

قاطعته مندهشة: سامحتك! على ماذا يا أبي!؟

- أتعلمين يا حبيبتي أنت نقية جدًّا كماء زمزم، بريئة كالأطفال، تظنين أن هناك على هذه الأرض أشخاص بلا آثام وعلاقات بلا مشاكل وأخطاء، لا يا حبيتي فهذه الأرض السوداء ربما خلقها الله هكذا حتى يستر ذنوب البشر فلو كانت بيضاء لسوَّدتها الذنوب، وفضحنا أمام بعضنا بعضًا، كل العلاقات على هذه الأرض يشوبها نقص وتشوهها الأغلاط، وفي كل نفس ضعف وفي كل قلب ذرةٌ من حقد، وأنا لا أنكر أني عشقت فاطمة رغم تسلطها، وفي زمن ما قبل ولادتك كانت أمك

على غير ما عهدتها، وكان أبوكِ على غير ما عهدته لكن ما من شيء يبقى على حاله.. فإن أردتِ أن تلومي أحدًا على معاملتها العنيفة لك فلوميني أنا، أنا السبب في كل هذا العداء تجاهك... وإن لم تكن أمك تقصده أو تشعر به حتى.

- أنت السبب!! كيف يا أبي ما عهدتك غير عاشقٍ جيد حنون تدللها وتلبي طلباتها كانت ملكة في بيتك! ولماذا تبغضني بسببك! ألست من رحمها!؟ ألم أنمُ في بطنها!؟

شهق أبي كمن يحمل همًّا عظيمًا فوق صدره، وأرخى رأسه للخلف وتمتم: نعم يا حبيتي أنتِ من رحمها لكن... عام حملك وميلادك عاهد ألمًا عظيمًا في نفس أمك لم تنسَه أبدًا...

- حسنًا لتخبرني ما الأمر...

- حسنًا يا غاليتي. في عام حملك وهنت أمك وتشقَّق بطنها لكبر حجمك وامتلأ جسدها بالبثور والتقرُّحات فقد كانت تعاني من نوع نادر من الحساسية، فلبشرتها التي تشبه بياض الثلج وملمسه هذا عيوب فقد كانت مفرطة الحساسية تتأثر بكل شيء حتى تغيُّر الهواء وعدم تناولها الدواء بسبب حملها بك جعل شفاءها أمرًا صعبًا، زهدتها نفسي ولم أكن أقربها وكنت دائم السفر لدبي للعمل ومنها إلى بيروت متحججًا بالعمل.

لكن الأمر لم يكن قاصرًا على العمل فقط، فقد كنت أقضي الوقت في السهرات مع بعض الأصدقاء في الملاهي والبارات وكانت لي بعض العلاقات التي أسال الله أن يغفرها لي مع بعض الراقصات والغانيات، غير أني لم أكن أفضل أحدًا على وجه الخصوص كلهن متشابهات، كلهن يمرِّرن الوقت، فقد كنت شابًّ عشرينيًّا مفعمًا بالحيوية مندفعً خلف شهواته بلا تردد أو حساب.

إلى أن التقيت الياسمين كانت فتاة عراقية ذات بشرة حنطية وعيون سوداء ونحر طويل وشعر أسود كثيف وطويل، ناهدة ممتلئة الفخذين نحيفة الخصر تحمل شامة أعلى شفتيها كشامتك ممتلئة الشفتين وشديدة بياض العينين والأسنان، في صوتها غنج وفي قربها دفء لم أعهده في فاطمة...

مالت لها نفسي كثيرًا وفُتنت بجمالها، كانت كلما تودَّدتُ لها لانت وعندما أظن أني تمكَّنت منها فرت؛ فزادت ولعي بها، فلما صارحتها قالت نتزوج وكنت في ذلك الأوان لم أنجب سوى طارق أخيكِ. قلت وفاطمة وولدي طارق؟ قالت هذا شأنك يا محمد إن شئت طلقها وإن شئت أن تمسك عليها فأمرها بيدك. قلت بل ممسك وكتبت عليها في ليلتها. كانت الياسمين سلطانة في عشقها لا صوت يعلو فوق صوتها، كانت سلطانة الغرام كما كنت أناديها، أنَّى لفاطمة ببراءتها أن تجاريها...

طوال عام حملك لم أقرب أمك ولم أواسِها حتى بكلمة... كنت إمَّا مسافرًا وإمَّا مشغولًا. كانت الياسمين غيورًا ذات كبرياء لا تجاهر بغيرتها، لكنها كانت تفعل كل شيء ممكن أو غير ممكن حتى لا تدع ثقبًا دقيقًا لتصلني من خلاله أي امرأة أخرى، كانت تجيد فن الحب، تجيد الشد والجذب وتضعني دائمًا فوق الموج. كانت دائمًا متأججة كبركان، عشقتُها كما لم يعشق رجل أنثى...

صمت أبي وكأنما حديثه شق جرحًا غائرًا في قلبه.. فقاطعت صمته: أكمل يا أبي... ماذا حدث لها؟ وأين هي الآن؟

هز رأسه وقال: حسنًا يا الياسمين سأكمل لكن رفقًا بأبيكِ فالأمر ليس سهلًا عليه؛ فهذا جرح بروحي عمره من عمرك حبيبتي فثمت رفقًا به. حتى أردف شاهقًا: قضيت مع الياسمين ستة أشهر مروا كأنهم لحظة، حتى ذلك اليوم الذي أرادت فيه السفر للعراق لزيارة أهلها ولتقضي معهم بعض الوقت ولأتعرف عليهم، وافقت وسمحت لها بالسفر وحجزت لها على متن الطائرة المتوجهة لمطار بغداد وأخبرتها أني أفضل أن تذهب هي أولًا لتمهد لقدومي وسألحق بها بعد عدة أيام، رحبت بالفكرة وقالت هكذا أفضل.. سافرت الياسمين ونزلت في مطار بغداد عندما شنت إيران هجومها الجوي على العاصمة العراقية في حرب الخليج الأولى وانطلقت صافرات الإنذار تهز أرجاء العاصمة. حينها كانت الياسمين تقطع شوارع بغداد بسيارة أجرة قاصدة بيت أهلها حين أصابتها إحدى الفذائف وتوفيت في وقتها... ورحلت

الياسمين عن عالمي، غادرت مخلِّفة إياي خلفها مذهولًا مشتتًا يائسًا كارهًا للحياة برمتها، تركت ذكراها مزروعة في روحي منقوشة في جوفي كوشم بكف عجوز.

عدت للمملكة، كنت كطير كُسر كلا جناحاه على غفلة.. زهدت في كل شيء وانكببت على العمل إلى أن أتى ذلك الصباح الذي جاءني فيه جدك على مقر الشركة ليخبرني بقدومك.. عندما نظرت في وجهك للمرة الأولى خلتك تشبهين الياسمين؛ فتمتمت باسمها، حين سمعني جدك وقال اسم جميل إنها الياسمين يافاطمة.. ابتسمت أمك موافقة. في ذلك الأوان لم يسمح الطبيب لأمك بإرضاعك فطمتِ من يوم ميلادك، فلم تكن صحتك على ما يرام أيضًا. بعد وقت غير طويل من ولادتك سافر جداك بكما إلى الأردن للعلاج؛ فقد كانت صحتك وفاطمة بحال سيئة، بقيتما هناك لثلاثة شهور حتى تعافت أمك تمامًا واستعادت صحتها وجمال بشرتها وعادت ممتلئة بالحياة كذلك أنتِ، وعدتما جميعًا للمملكة، عادت أمك جميلة جدًّا كما سابق عهدها، ظننت أني سأقبل عليها إلا أن جرح الياسمين وعشقها كان لا زال في دمي كنت زاهدً في كل النساء حقًّا.

كانت تأتيني ليلًا متأنقة مستعرضة جمالها وأنوثتها فلا تجد منِّي سوى البرود والهجر...

ولأمك كبرياء لا تقبل بإهانته...

مر وقت طويل لم ألمسها أثار ذلك في نفسها شكًّا، وأخذت تفتش في كل شيء لتعرف ما سر زهدي ولم تجد شيئًا مطلقًا أنَّى لها أن تعرف بما كان من أمري مع الياسمين إلى أن أرسلت لي جدك ذات مساء يستيقن الخبر ويطلب مني الفراق بالحسنى إن كنت قد كرهتها...

أتاني جدك حزينًا مكسورًا يعيد عليَّ حديثه بأن فاطمة هي ابنته الوحيدة ومدللته وما دمعت عيناها في بيته من قبل، وذكَّرني بعهدي له يوم خطبتها منه بأني سأصونها وأسعدها ولا أهينها ولا أبخل عليها...

قاطعته قائلًا: ما الأمر يا عمي هل قصرت مع فاطمة في شي؟ هل بخلت عليها أو أهنتها؟

قال: أجل يا ولدي بخلت، بخلت عليها بحقها فيك فما لِنت لها وجرحت كبرياءها وأنوثتها، فليس كل البخل مال يا بني فبخلك بمشاعرك أعظم. فاطمة تحبك كثيرًا وحزينة من هجرك لها فهل وجدت منها ما يسيئك؟ أخبرني أؤدبها لك.

أجبته: حاشا لله يا عمي والله ما وجدت منها غير الخير كله.

- إذًا لماذا تهجرها يا ولدي ألم يعد لك فيها رغبه؟

أجبته: لا يا عمي ليس الأمر هكذا.. فهي زوجتي وأم أولادي.

وحكيت له ما كان من أمري مع الياسمين وقصتي معها، وأخبرته

أني لم أكره فاطمة ولم أنوِ فراقها أبدًا، غير أن في نفسي وجع وحزن جعلاني زاهدًا في كل النساء... وطلبت منه أن يطمئن قلبها ويهدئ نفسها، وإن شاء الله لن تجد مني غير ما يسعدها.

سمعت أمك حديثي مع جدك وحملته في نفسها، وبذلت كل جهدها لتنتصر على شبح الياسمين الذي ظل عالقًا في ذهنها وتذكرينها به كلَّما رأت حبي لك واهتمامي الزائد بك دون أخويك، كانت تظن أن ذلك هزيمة لها أمام المرأة التى أخذت زوجها منها.. كانت تظن أني أحبك لأنك تحملين اسم حبيبتي التي سرقتنا منها وفضلتها عليها.. كانت تأخذها الغيرة العمياء من سيدة ميتة وتنسى أنك ابنتها ولستِ تلك السيدة فتبدو حادة قاسية. وزاد الأمر سوءًا عندما كبرتِ فكانت لكِ شخصية مميزة مستقلة مختلفة عن أخويك رغم ما كان يبدو عليكِ من انطواء، كنت عنيدة لا تنصاعين لأمرٍ لها، كان هذا ينفِّرها منك.. ويثير غضبها كثيرًا.

كنت قد جددت العهد لجدك بأن أصون ابنته ووعدته بأن أذهب لها الليلة وأراضيها، فلما ذهبت لها جلبت لها عقدًا من الذهب الأبيض به قلب صغير في جوفه ماسة بيضاء فلما رأته أعجبها فأخبرتها أنه قلبي وأنها الماسة التي في جوفه، ابتسمت وهمست لن أنزعه عن جيدي ما حييت. ودمعت عيناها واختنقت بالبكاء حين بادرتني بصوت باكٍ متقطع: لكنك كاذب يا محمد.

قلت لها: لمَ تقولين هذا يا فاطمة؟ منعها كبرياؤها أن تخبرني أنها كانت تسترق السمع لحديثي مع جدك، وقالت لأنك هجرتني كثيرًا ولأني اشتقت إليك كثيرًا. ورمت بجسدها فوق صدري، وقالت: عدني ألا تكون هناك ماسات أخرى. قبَّلت رأسها ووعدتها. وباشرتها، فلما انتهينا نظرت في عينيَّ وقالت: حدثني عن فاطمة؟

قلت: أجمل النساء.

قالت: أليست الأشهى يا محمد؟

قلت: بلى. وقبَّلت جبينها.

أردفت: ماذا تكره فيها؟

أجبتها بلطف: أنا أحبك يا حبيبتي، لماذا تسألين كل هذه الأسئلة؟

قالت: إنه سؤال فقط أردت أن أعرف ما تحب وما تكره.

فابتسمت لها وضممتها إلى صدري وقلت لها: لا تُجهدي رأسك الجميل في التفكير، لا يوجد فيكِ ما أبغضه أنت فاتنة محمد.

كانت أمك تعشق الكلام الجميل كثيرًا، منذ ذلك اليوم وهي تتفنن لتحتفظ بمكانها في قلبي، داوَى الوقت حزني علي الياسمين ولان قلبي لأمك حتى عشقتها، فتغاضيت عن أخطائها وأكرمتها وحفظت عهدي لجدك ووصيته لي. مع مرور الوقت كانت أمك تشعر بالأمان كل يوم أكثر معي حتى آمنت أني لا أرى سواها، فقط كانت الياسمين ندبة في قلبها لأنها المرأة الوحيدة التى هُزمت أمامها والتي عاشت عمرها كله تتألم بسببها.

هل علمتِ الآن سر جفافها معكِ!؟

همستُ: نعم. لكن كيف علمتَ أن امي علمت بشأن الياسمين.

- أخبرني جدك بعدها أنها تحدثت معه بسماعها لحديثنا، ونصحها جدك أن تنسى هذا الموضوع وتحافظ على زوجها وبيتها ولا داعي لأن تفكر كثيرًا في سيدة هي الآن بين يدي الله. الآن يا ابنتي بعد أن أخبرتك الحقيقة كاملة إذا أردتي أن تلومي أحدًا فلومي أباك العجوز، أنا السبب في أزمتكما معًا.

ابتسمت لأبي وسألته محاولة إضفاء جوٍّ من البهجة فقد بدا لي حزينًا للغاية: لكن يا أبي عليك أن تخبرني من أحببت أكثر أمي أم الياسمين؟

ابتسم أبي ابتسامة باهتة، وقال: لا يا حبيبتي قلب الرجل لا يعمل هكذا لكلتيهما مكانة في قلبي لا مساس بها. إن الله إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون، فلربما كان حبي لأمك دعاء والديها لها.

طرأ في زهني وقتها قصتي مع علاوي فأومأت برأسي متؤوه نعم صدقت يا أبي إن الله إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون، وقمت من حجره مضطربة الخاطر محاولة إنهاء الحديث..

فصمتنا برهة، بعدها قال أبي: حسنًا حبيتي سأذهب الآن للنوم سامحيني وسامحي أمك يا غاليتي.

قبَّلت رأسه وقلت: علامَ أسامحك يا أبي هل يعقل أن تكون المحبة جرمًا يُطلب عليه العفو والسماح!؟

وأردفت قائلة: أنت أفضل أب قد تحظى به فتاة على الإطلاق، هل تعلم هذا؟

لم يجبني أبي بشيء، اكتفى بابتسامة حزينة وقُبلة على جبيني وانصرف.

نسيت أني قد كنت ذاهبة لعمل القهوة وعدت إلى غرفتي فتحت هاتفي فإذا بالمنتدى ما زال مفتوحًا، لمحت جرس الرسائل مرة أخرى فسرحت قليلًا في شريط من الصور الذهنية المتشعبة ما بين أحداثٍ جمعتني بأمي في طفولتي وأحداث مع علاوي وتخيُّل لما حكاه أبي، أصابتني رجفة أغلقت على إثرها الهاتف وحاولت تصفية ذهني والخلود إلى النوم.

الفصل العاشر

استيفظت مع خيوط الصباح الأولى قلقة أرِقه، كانت هناك نسمة باردة تتحسس طريقها إلى صدري تأتي من نافذة الغرفة المجاوره... شعرت بالدوار فور وقوفي فجلست على الكرسي قرب النافذه، حتى أستعيد توازني فإذا بصوت خفيف يأتي من نافذة الغرفة المقابلة للبيت المظلم يتساءل: هل أنتِ بخير؟ ذهبت إلى النافذة فإذا بشاب يبدو في الثلاثين من عمره حليق اللحية وطويل القامة ذو بشرة حنطية وشعر أسود ناعم قصير وعينان تميلان للأسود، يسألني: هل أنتِ بخير؟

أجبته: نعم بخير، من أنت!؟

قال: أنا جارك وولد عمك ناصر...

فقاطعته: لكننا هنا منذ مدة طويلة ولم يكن يسكن هذا البيت أحد!

قال: أنا أعمل محاسبًا في إحدى الشركات الإماراتية ولم آتِ لمصر منذ سنتين.

سألني: الست الياسمين ابنة عمي محمد؟

قلت: نعم أنا هي..

فأردف باسمًا: حدثتني أمي عنك كثيرًا..

أجبته بدهشة: عني أنا! لماذا!؟

قال: لقد رأيتك تمسكين برأسك وتسقطين من خلف النافذة هل أنتِ بخير؟

أجبته: نعم لا بأس فقط أعاني دوارًا عند الاستيقاظ من النوم فسقطت على الكرسي.

فقال: حسنًا اعتني بصحتك جيدًا وإذا أردتي شيئًا ناديني، اسمي ناصر لا تنسي.

أجبته بتعجب: شكرًا لك. وانصرفت.

جلست أتعجب من شأن هذا الشاب الجديد، ما الذي يجعله ينظر إلى غرفتي في هذا الوقت؟ وما الذي يجعل مني حديثًا بينه وبينه أمه؟ فأنا نادرًا ما أخرج! ذهبت إلى الحمام وذهني مشغول، وأنا في طريقي مررت إلى المطبخ وشربت جرعة لا بأس بها من الماء. كان قد بدأ الجميع في الاستيقاظ. أخذت حمامي وعدت إلى المطبخ مرة أخرى لأعد قهوتي الصباحية، أحضرت معها قطعتين من كوكيز الشوفان المحلى بالشوكولا والبندق وأخذت أتفقد الهاتف، دخلت إلى عالمي الأزرق

أتفقد التعليقات والرسائل، وقضيت بعض الوقت في التصفح وقراءة الأخبار وما هو جديد في هذا العالم؛ فلم تعد الجريدة الصباحية ذات شأنٍ هذه الأيام. وقفت على بعض المنشورات الأدبية لبعض الأصدقاء الذين تعجبني أقلامهم حتى فرغت من قهوتي، وضعت الهاتف جانبًا. كانت الشمس قد ملأت السماء وبدأت الحياة تدب في القرية، ذهبت لغرفة أبي فإذا به يقرأ في مصحفه، قبَّلته وطلبت منه أن يأتي سأجهز الفطور سريعًا وخرجت من عنده إلى غرفة أخوي أوقظهما فوجدتهما قد استيقظا بالفعل، ساعدتهما في ارتداء ملابسهما وأعددت لهم فطورًا خفيفًا مع عصير برتقال طازج وصنعت كوبًا من الشاي المنكَّه بالنعناع لوالدي.

تناولنا الفطور سويًّا، لم تخلُ الجلسة من بعض المناوشات مع أخويَّ حول الطعام وضرورة أن ينهيا طبقيهما، كان أبي شارد الذهن مفتعلًا ابتسامة يخبرهما بنبرة مهزومة عن ضرورة طاعتهما لي. كنت أشعر بافتقاد أبي لأمي كثيرًا هذا الصباح. انتهى الفطور وانصرف أبي إلى مجلسه في الخارج مصطحبًا مصحفه وركض أخواي ليتصارعا حول ريموت التليفزيون من يمسك به أولًا.

أما أنا فقد ذهبت إلى المطبخ حاملة أطباق الفطور معي، نظفتها وأعدت كل شيء إلى مكانه، وعدت لغرفتي. جلست على الكرسي

قرب النافذة أشعل سيجارة عندما ظهر هذا الشاب مرة أخرى يشير بيده مع ابتسامة، ذهبت إلى النافذة وسألته: ما الأمر؟ وأنا ممسكة بسيجارتي عندما سألني بتعجب: بتدخني!؟

ابتسمت له ابتسامة باردة، وأجبته بهدوء: نعم.. كما ترى.

فقال: وهل يعلم عمي بهذا الأمر؟

أجبته ما بين مرتبكة ومحاولة ادعاء الثقة: عفوا! وما شأنك أنت؟

قال: إذا هو لا يعلم لا تخافي لن أخبره..

بصراحة لم أسأل نفسي سابقًا هل يعلم أبي بأمر تدخيني أم لا، أنا لم أدخن أمامه من قبل، لكن هذا لا ينفي احتمالية أن يكون على علم؛ فالتدخين ليس أمرًا سهلًا إخفاؤه، يمكن لأي شخص أن يكشفك بسهولة. ربما كان هذا ناصر يتكلم عندما شرد ذهني في هذا الحوار الصامت مختفِية خلف غيمة الدخان المنبعثة من بين شفتيَّ ناظرة إلى اللاشيء، عندما لفت انتباهي إشارات يديه أمامي فنظرت إليه، عندها سألني بفضول: أين ذهبتِ؟

أجبته: إلى اللاشيء.

نظر إلى عينيَّ وهمس: عيناكِ جميلتان جدًّا.. لكن لمَ هما حزينتان هكذا؟

ابتسمت له وقلت: طابعهما الحزن لكني لست كذلك. أخبرني من تكون...

قال: أنا نفسه من ظهر لكِ مع الفجر، أخبرتك اسمي ناصر.

قلت: نعم أذكر اسمك لكن المنزل هذا مغلق من يوم سكنَّا هنا أليس لك عائلة؟

أجابني: لي أمي فقط وهي كبيرة في السن تسكن في الطابق الأول.

قلت له: نعم ومن تكون أمك؟

- أمي هي ذكية، هذه السيدة البيضاء السمينة التي تجلس في فناء هذا المنزل.

- حسنًا عرفتها فقد مررت بها من قبل، وماذا أخبرتك عني؟

قال: أخبرتني عن حسناء عزباء قادمة من الصحراء تحمل دمًا شاميًّا، ذات ملامح جميلة وعيون فاتنة وشعر كما الليل غجري طويل وخصر مشدود وقوام جميل و...

قاطعته: هل قالت أمك كل هذا أم أنك تصف ما ترى؟

ابتسم ابتسامة خجولًا، فابتسمت ساخرة: ما الأمر هل أحرجتك؟

فرد بعفوية: حسنًا أعتذر ودخل غرفته.

لا أعلم لمَ عاملته بكل هذا البرود، لكن الأمر لم يشغلني كثيرًا.

جلست على حافة سريري أقرأ قليلًا في رواية «بائعة الكتب» لسينثيا سوانسن، لم أقرأ لتلك الكاتبة من قبل، أعجبني العنوان كثيرًا...

لم أستغرق وقتًا طويلًا حتى اندمجت في القراءة، فأنا أذوب في أحداث الروايات التي أقرأها، أحياها أعيش أحداثها وأنغرس في تفاصيلها وكأني بطلتها.. بائعة الكتب من النوع الذي يعجبني كثيرًا، النوع الذي يجعلنى أتخيل أحداثها كأنها فيلم سينمائي أعيش أحداثه بكل حواسي.

القراءة والكتابة هما متعتاي الوحيدتان في هذه الحياة، لا أعرف كم من الوقت قد مر وأنا أقرأ حتى قطع اندماجي صوت تنبيه قادم من الجوال خلت أنه رسالة نصية لكنه لم يكن كذلك، كان صوت رسالة قادمة على المنتدى، لم أكن قد سجلت الخروج منه. شهقت وكأنما سيلطف هذا الهواء الداخل إلى صدري صهد هذا الحريق الذي شب داخلي، تشجعت وفتحت صندوق الرسائل.. ردَّدت ما بين مندهشة ومصدومة: يا إلهي إنه هو علاوي... ابتسمت ساخرة، ماذا عساه يريد مني بعد كل هذه السنوات؟ ما الداعي لهذه الكمية المهولة من الرسائل هنا؟ أهذا الذي كان يتركني لشهور أقتات على فتات ذكريات..

فتحت الرسالة الآتية للتو:

(ا ش ت ق ت ك).

رددت في نفسي اشتقتك بحروف متقطعة ربما لم يكن من المقدر لها أن تجتمع، ربما لم يكن من المقدر لنا يومًا أن تجمعنا كلمة واحدة، أن تجردنا نحن من أنا وأنت لنكون كيانًا واحدًا لا بدَّ.. شعرت بنبضة زائدة في قلبي جعلتني أرتبك.. جعلتني رسالته القصيرة وحروفه المتقطعة فضولية جدًّا تجاه كم الرسائل الذي تركه لي، ماذا يكون عساه قد كتب لي، إن كان بعد كل هذه السنوات لم يجد من الأبجدية سوى ست حروف متقطعة ليقولها، أي بؤس هذا!؟ لا أدري ما الذي جعلني أضحك فجأة وجعلني أردد دامعة العينين لا أعلم من الألم أم من كثرة الضحك: أستغفر الله.

نزلت حتى أول رسالة أرسلها لي كانت أقدم رسالة بعث بها، بي فضول كبير لمعرفة ما بها، ما الذي قد يقوله لي علاوي بعد مدة ليست بالكبيرة من تاريخ زواجه، شردت أتساءل في نفسي عن محتواها، هل سيخبرني فيها كم هو بائس معها.. أم أنه زهدها ولم يعد يريدها أو أنه سيخبرني بندمه على علاقته بي! أو ربما سيخبرني كم يفتقدني مثلا. على كل حال قررت فتح الرسالة...

ردَّدت مندهشة: يا إلهي ما كل هذا! هل كتب علاوي لي رسالة تحمل هذا الكم من الكلمات حقًّا، هذا يكاد يكون ضعف الكلمات التي قالها وكتبها لي مدة خمس سنوات متتالية قضيتها على قيده. مررت عيني فوق الكلمات وبدأت القراءة بصوت مرتفع نوعًا ما:

(هل تعلمين ياياسمين لم تستطِع نساء الأرض جميعًا نزعك من قلبي، أدرك حجم خسارتي فيكِ فامراة مثلك لن تتكرر في حياة رجل مثلي مرتين، أتذكر تلك الكلمات التي قرأتها عليَّ متباهية ذات لقاء لتلك الشاعرة التي تكتب بالإسبانية ماذا كان اسمها.. تذكرت إنها مارتا ريفيرا حين قالت:

لا تقع في حب امرأة تقرأ، امرأة تحس بمشاعرها أكثر من اللازم، امرأة تكتب

لا تقع في حب امرأة مثقفة ساحرة وساخرة ومجنونة

لا تقع في حب امرأة تعرف كيف تفكر وتعرف كيف تطير

لا تقع في حب امرأة تحب الشعر، امرأة تقف أمام لوحة فنية لساعات

لا تعرف كيف تحيا بلا موسيقا لا تقع في حب امرأة متمردة شفافة فهؤلاء هن أخطر النساء

فبغضِّ النظر عن بقائها معك أو لا فمن مثل هذه المرأة لا أحد يرجع لا أحد يعود.

أخالك تعجبين الآن لأني ما زلت أذكر كلماتك.. صدقيني ياسمين أنا وإن بدوت غير مهتم متيم بكِ أحفظ كل كلمة قلتِها لي عن ظهر قلب، لم أدعك تغيبي عن عيني يومًا لطالما كنت أطوف حولك، قد لا تريني

لكني لم أخرج منكِ يومًا أنت هي الحياة لقلبٍ يتنفسك، كوني واثقة أنتِ تمسكين القلب بكفيك..

أعلم أنكِ ربما لم تشعري بتعلقي وحبي لطالما كنت تظنين أنك الطرف الأضعف، لكنك طالما كنت الأقوى.. لطالما كنت الحرب التي تنفخ أبواقها في نفسي فتبدد كل سلام، لم تتركي أخضر ولا يابسًا إلا نلتِ منه.. تشرق الصباحات مع عينيك، تتسللين مع نسمات الفجر إلى صدري وتندسين في الثلث الأخير من الليل تحت فراشي لتحتلي أحلامي لم تتركي شيئًا لسواكِ، لطالما كنتِ حربًا لا سلام فيها أينما تدقين طبولك فيَّ لا تكفين إلا وقد رفعت راية انتصارك.. إذا جلست لتناول القهوة أجدكِ امامي، أتحسس شفاهك بأناملي على حواف فنجاني، أستمع لحديثك أنتشي بنبرة صوتك وطريقة تحليلك لأحداث وثقافتك وأنوثتك... أنتِ بالفعل امرأة خطرة جدًّا..

قد تسأليني الآن لماذا!؟ لماذا كل ما حدث!؟ لماذا أراسلك الآن!؟ أنا أعلم أنكِ ربما لن تقرئي هذه الرسالة أبدًا لذلك دعيني أعترف لكِ: بعد وفاة أمي لم أشعر بالراحة أبدًا فأنا لم أكن أجد نفسي إلا معك، ضقت بكل شيء، ثقل ما فوق صدري لا أستطيع التخلص منه من يوم فقدتك، أستطيع تمثيل السعادة طوال الوقت لكن مؤخرًا أصبح الأمر مجهدًا جدًّا يا حبيبتي. ما كان أمامي غيرك غير بقاياكِ غير طيفك لأناجيه لأضع رأسي فوق أضلعه وأبث له حزني وهمي..

لا يوجد في الكتابة قبلية.. لا يوجد هنا التزامات.. لا يوجد هنا ما يبعدك عني ما يهزمني أمامك، هنا أنت لي...

كانت هذه الرسالة كافية جدًّا لتزلزل كياني لتغير تقييمي لكل شيء، هل كان ليمرض أو يفقد رجولته إن قال لي هذا سابقًا؟! لم أعهده سوى غير مبالٍ قليل الكلام، قاسٍ. أخذت أفكر ما الذي قد يكون ألمَّ بك يا علاوي؟

لم أكن قد أجبت على رسالته ذات الستة حروف منفصلة رغم كوني أراه متصلًا الآن، لم أكن أعلم ماذا يمكن أن أقول أصلًا!؟ بمَ يمكن أن أجيب!؟ لقد عانيت كثيرًا بسببه، تحمَّلت الكثير من الأذى النفسي والجسدي، واستغرقت وقتًا طويلًا جدًّا للتعافي.. لا أريد التورط فيه من جديد، لا أريد التعلق والإدمان عليه من جديد.

تسرب إلى نفسي شعور مفاجئ بالإجهاد، بالاختناق، بالحنين، لكنى لم أعد بذات القدر من الاندفاع، بذات القدر من التحمل كما في السابق أغلقت الهاتف في هدوء وقررت الهروب إلى أبي بمجلسه، قررت الاختباء فيه، الاحتماء به هذه المرة. ركضت إليه ظانَّة أن لا أحد معه فوجدت بعض الأصدقاء معه فكبحت تفسي واستأذنت محاولة الحفاظ على هدوئي، فقال: تعالي يا الياسمين، سلمي على أعمامك، هذا عمك أحمد.

كان رجلًا كبيرًا في العمر بدينًا ذا شارب كبير حليق الذقن وذا صوت غليظ وملامح غليظة، سلمت عليه ففرك يدي بكفه الغليظ فتأوَّهت

بصوت مرتفع.. فضحك الرجل وقال: اجمدي يا بنت.

قاطعه الرجل الآخر بجانبه وقال: رفقًا بها يا أحمد ألا ترى رقتها.

ضحك أبي وقال: هذا عمك خالد كما ترين رجل عجوز لكنه ما زال محتفظًا بوسامته رغم شعره الأبيض.. سلمت عليه وسألني عن حالي، أجبته: بخير الحمد لله. ذهبت وجلست بجوار أبي، سألني أبي برفق: هل تريدين شيئًا يا حبيبتي؟ أجبته: لا، لكني أشعر بالملل قليلًا. قال لمَ لا تخرجين للتمشين سيعجبكِ المكان، صدقيني حبيبتي. أجبته حسنًا يا أبي سأذهب بعد قليل. أردف قائلًا: أو ما رأيك بأن تذهبي للتسوق، فمنذ قدومنا إلى هنا لم تشتري شيئًا جديدًا لك.

كنا نتناقش في الأمر عندما دخل علينا هذا الشاب ناصر. قال: السلام عليكم. رد الجميع عليه السلام. دخل المجلس وصافحهم، وجلس بجوار أبي من الجانب الآخر. نظر لي وقال: كيف حالك يا عمي؟ أجابه أبي وهو منهمك في البحث في جيوبه: أنا بخير الحمد لله.. كيف حالك يا ناصر؟

قال: بخير يا عمي.

أردف أبي: هل لديك شيء يشغلك الآن يا ناصر؟

قال: لا يا عمي، هل تأمرني بشيء؟

رد عليه العم أحمد: عمك يريدك أن تصطحب ابنته معك للتسوق لتشتري نواقصها.

نظر لي ناصر باسمًا: هذا يسعدني يا عمي.

أعطى العم أحمد مفتاح سيارته لناصر وقال له: خذ سيارتي. تناول ناصر المفتاح وأعطاني أبي الكثير من المال أخذته واستأذنت لأحضر حقيبتي. صعدت الدرج سريعًا، بحثت عن هاتفي ووضعته في حقيبتي ورتبت نفسي قليلًا. ذهبت إلى أبي وأخبرته ألا ينسى أن يطمئن على أخويَّ، قال لا بأس حبيبتي سأهتم بالأمر. ابتسمت له وقلت: حسنًا سأذهب الآن.

كان ناصر جالسًا في السيارة أمام باب المنزل ينظر لي باسمًا، جلست إلى جواره وهو ما زال ينظر لي وسألني: أين تحبين أن تذهبي؟

أجبته: أي مكان أنا لا أعرف الأماكن هنا.

- هل تودين الذهاب إلى القاهرة.

أجبته: لا بأس.

كان يحاول افتعال حوار معي.

- هل أعجبتكِ مصر؟

- لا بأس بها فأنا لم أخرج من القرية من يوم قدومنا إليها، فالقرية لا تختلف كثيرًا بالنسبة لي، لطالما كنت أعيش في غرفتي لا يعنيني ما يحدث خارجها. لكن بشكل عام الحياة في مصر أصعب؛ فوالدي أصبح مُسنًّا لم تعد لديه القدرة على الاهتمام بشؤوننا لذلك لا أرهقه

كثيرًا بالحديث عن الخروج والتسوق، فعدم وجود سائق لنا هنا أمر صعب...

قاطعني ناصر: ولمَ لا تتعلمين أنتِ القيادة؟

- فكرت في الأمر لكني أجلت الفكرة إلى أن يكتمل بناء منزلنا الجديد، ومن ناحية أخرى أنا لست في العادة متطلبة وكثيرة الخروج لكني مؤخرًا أصبحت أشعر بالملل والوحدة وبالغربة أيضًا.. هل تعلم أن أسوأ شيء يمكن أن يحدث أن تصبح الغربة جزءًا من نسيجك النفسي، تشعر بها حتى في ذاتك، أن تفقد الإحساس بالوطن هذا شيء مر للغاية.

إن الحياة التي تمنحنا الفرص ليست في العادة كريمة، عندما تمنحك فرصة عليك أن تفكر مليًّا ما الذي ستدفعه في المقابل.. وهل تستحق هذه الفرص هذا الثمن أم لا... منحتني الحياة حياة مرفهة بالمملكة.. لكن أن تولد غريبًا وتعيش عمرك كاملًا فاقدًا للهوية لا تستطيع أن تكون منتميًا أمر صعب للغاية وإن بدت الحياة للناظر عن بعد جميلة ومرفهة. الإنسان بفطرته كائن اجتماعي يبحث دائمًا عن الانتماء، لا يشعر بالأمان وحده خُلق ليعيش وسط جماعة، إن لم يكن يملك واحدة فإنه يسعى ليكوِّن واحدة لتكون ملجأه، وطنه الصغير وتبقى تلك الجماعة تمثل له الوطن..

عندما كنت طفلة لم تكن الجنسية تعني لي الكثير ولا الأوطان تعني لي، كنت أظن أن البشر جميعًا سواسية لهم نفس الحقوق وعليهم

نفس الواجبات في أي أرض كانوا، لا يختلف مصري عن سعودي عن إماراتي، إلى أن أدركت أن الأمر ليس بهذه السهولة؛ فهناك حدود ومسميات، هناك ما يسمى وطن، ومن يحمل هوية غير الذي يحمل جواز سفر وبل جوازات السفر نفسها درجات، فمن يحمل جواز سفر مصريًّا لن يحظى بنفس الحقوق التي يحظى بها من يحمل جواز سفر خليجيًّا، وإذا وسَّعنا الدائرة أكثر فمن يحمل جواز سفر عربيًّا لا يحظى بنفس الحقوق التي يحظى بها من يحمل جوازًا أمريكيًّا.

عندما عدنا إلى مصر بقيت أبحث عن هذا الشعور الذي لطالما قرأت عنه، هذا الشعور الذي يملأ تلك الفجوة بروحك لعل اللقاء يطفئ الشوق اللامنتمي داخلك والذي يبحث له عن مكان ينتمي له، لكن حتى أكون صريحة معك حتى تلك اللحظة ما زلت أشعر بالغربة عن المكان، عن الناس، عن ذاتي حتى...

قاطعني ناصر: من أين أتت كل تلك المرارة!؟ كيف لهذه الملامح الملائكية أن تكون حزينة هكذا!؟

- أتعلم يا ناصر الثقافة منحتني الكثير جدًّا من الخيال وسعة الأفق، وسَّعت قراءاتي للكتب المترجمة سقف شعوري فأصبح لي متطلبات كبيرة جدًّا من المشاعر يبدو أنها تخطت بكثير قدرات العالم المحدود الذي أعيش فيه.. أن تقع في أزمة بين ما تريد وبين الممكن ولا تستطيع أن تجد حلًّا وسطًا، هذا يجعلك ضحية لأرق كل ليلة، فيأكلك بلا رحمة... كم تبقى لنصل؟

- ليس كثيرًا... ما الذي تريدين شراءه؟

- بعض الكتب، كذلك ملابس وأحذية وألعاب وأشياء خاصة بالمطبخ.

- حسنًا لنذهب للمجمع التجاري بوسط البلد فهو مول كبير ستجدين فيه كل ما تحتاجين من ماركات جيدة.. أما الكتب فسأذهب بكِ إلى مكان مخصص لبيع الكتب ستجدين فيه أكثر مما تريدين.

ابتسمت له وقلت: اتفقنا.

الفصل الحادي عشر

لم يمر الكثير من الوقت حتى وصلنا إلى المول، نزلت من السيارة ووقفت موجِّهة نظري تجاه الواجهة أتفقدها، فإذا بناصر يأتي من الخلف ممسكًا يدي بين قبضته لينبهني من شرودي. دخلنا مباشرة، أخبرته أني أريد أن أجلس أولًا لتناول القهوة. قال: حسنًا تفضلي. اخترنا مقهًى هادئًا في الدور الأول من المول. جلسنا إلى طاولة معدة لشخصين بجانب الحائط الزجاجي المطل على السوق من الداخل، طلبت لنفسي قهوة تركية بلا إضافات مع نوع من الشوكولا الغامقة المُرَّة، كنت أفضلها هكذا بلا إضافات...

جلسنا لشرب القهوة وأنا أنظر عبر زجاج المقهى المجاور لنا من الداخل، عندما مرت سيدة نحيفة قصيرة نسبيًّا حنطية البشرة بوجهٍ ذي ملامح بسيطة وشعر أسود منسدل، ترتدي بلوزة بيضاء طويلة وجينزًا أسود ملتصقًا وحذاء مرتفعًا أراه لا يصلح للتسوق، تدفع عربة بها طفلة ربما لم تكمل العامين بعد، لفتت انتباهي ملامحها كثيرًا.. يا إلهي كانت تحمل نفس العينين البنيتين نفس الحاجبين المحلقين، نفس الملامح ونفس الشفاه جذبتني جدًّا ملامحها.. ألتقط لها صورة

من خلف الزجاج حين لاحظت أمها ذلك وأرسلت لي ابتسامة من خلاله أيضًا. قاطعني ناصر: هل تحبين الأطفال؟

ابتسمت له وأجبته: بصراحة لا أحتمل إزعاجهم.. لكن هذه الفتاة ملامحها جميلة جدًّا ومميزة بالنسبة لي، ألا تجدها كذلك؟

قال: نعم لكنكِ أجمل بكثير جدًّا.

ابتسمت له وأكملت قهوتي. بدا لي يحاول التودد إليَّ.

انتهينا من القهوة وخرجنا لندور بين المحلات.. مرَّ وقت طويل، اشتريت بعض الملابس لي ولأخويَّ، اشتريت لهما أيضًا ألعابًا وحلوى، وبعض الأغراض للبيت. قضينا وقتًا لطيفًا حتى لمحت قاعة للسينما، أخبرت ناصر أني أريد حضور فيلم، فوافق وذهبنا باتجاه قاعة السينما فإذا بتلك السيدة وطفلتها مجددًا ابتسمت لها، ووقفت ألاعب الفتاة واستأذنتها في حملها فوافقت.. حملتُ الفتاة وضممتها إلى صدري بعمق وقبلتها كثيرًا.. سألت أمها عن اسمها... قالت: الريم. همست: ما شاء الله اسمها جميل. ورددت في نفسي ذات حب كنت سأسمي ابنتي أيضًا الريم.

ابتسمت للسيدة، وقلت: ملامحها جميلة للغاية ومحببة للنفس.. وأردفت: هل أنت سعودية!؟

قالت: لا نحن إماراتيتون.

- حقًّا هل كل الإماراتيين يحملون هذه العيون الجميلة؟

ردت السيدة: هي تحمل عيون والدها.

تعالى خفْق قلبي وأنا أحاول الحفاظ على ابتسامتي وهمست: حقًّا؟

قالت: بلى..

- هذه أول زيارة لكِ إلى مصر؟

- نعم إنها مرتنا الأولى. ونظرت للريم.

- هل أعجبتكِ؟

- نعم كثيرًا؛ فهي جميلة جدًّا، زرت خان الخليلي والحسين، أعجبتني المنتجات النحاسية كثيرًا والأجواء، والكافيهات على النيل جميلة أيضًا القاهرة ساحرة ليلًا.

ابتسمت لها وقلت: يسعدنا زيارتك لنا.. أين تقيمين؟

- في فندق سميراميس.

- حقًّا؟

- بلى.. زوجي يملك بيتًّا خاصًّا هنا، لكن ما زال يحتاج لبعض التجهيزات، فنحن سنقيم هنا لفترة طويلة فهو يؤسس لعمل دائم.

- جميل جدًّا..

ابتسمت لي وقالت: أنا العلياء أم الريم.. ما اسمك!؟

- أنا الياسمين.

- سورية!؟

- لا.. مصرية.

- حقًّا.. لا تشبهين المصريات أبدًا، ملامحك ولهجتك تبدو لي شامية.

ابتسمت لها وقلت: أعلم هذا فأمي سورية... لكن أبي مصري وأحمل جنسيته.

- حسنًا فأنا لم أخطئ، فهذا الجمال لا تخطئه عين، فيك من حسن بنات الشام الكثير...

ابتسمت لها في رفق وطلبت مني رقم هاتفي إن لم يكن يزعجني الأمر، استحييت من الرفض بعد لطفها معي وأعطيتها الرقم. سألتها هل أنتِ وحدك هنا؟ قالت: نعم فالسائق ينتظرني في الخارج فزوجي مشغول طوال الوقت بتأسيس فرع شركته.

قلت لها: هل تحبين حضور فيلم معنا.

قالت: نعم سأكون سعيدة بذلك.

عرفتها على ناصر. وسألته أن يحجز لنا تذاكر في مكان لطيف. ذهب ناصر ليحجز التذاكر عندما صدمتني بسؤالها وهو لم يبتعد بضع خطوات منا: هل تحبينه!؟

- ماذا!؟ اندهشت من جرأتها. سؤال غريب للغاية من شخص تقابله للمرة الأولى.

أردفت قائلة: زوجي هو ابن عمي أيضًا، عشقته منذ نعومة أضفارنا.. منذ كنا نلهو سويًّا بالرمال.. لم يكن يعلم بحبي له، كما أني كنت أظن أن هذا الحب لن يثمر أبدًا، كيف لشخص بوسامته كثير السفر شاهد من النساء كل الأشكال والألوان من شتى الجنسيات والثقافات أن يرضى ببسيطة مثلي؟ لكن الحمد لله في النهاية تزوجته وأنجبنا الريم نسخة متطابقة منه.

ردَّدت في نفسي: نعم صدقتي يا العلياء فهي نسخة متطابقة منه.

لم يعد لديَّ أدنى شك في أنها زوجة علاوي، غير أنه يبقى مجرد شك. أيُّ قدر هذا الذي يضع علاوي في طريقي مجددًا! ابتسمت لها وهمست: يبدو أنكِ تحبينه كثيرًا.

- يا الله.. أحبه فقط!؟ إنه الروح التى يحيا بها هذا الجسد الهزيل، إنه حبي لخمس عشرة سنة متتالية.

- يا إلهي إلى هذا الحد تعشقينه؟

- نعم يا الياسمين إنه الرجل الذي لطالما تمنيته.

ضحكت بصوت مرتفع حين ضحكت هي الأخرى وقالت: هل تظنين أنني مجنونة!؟ وقبل أن أجيبها بشيء قالت: نعم أنا مجنونة به فهو الحياة بالنسبة لي...

قاطعتها: وهل يحبك هكذا!؟

بدت لي كمن ضغط أحدهم فجأة على جرح عميق في صدره، تبدَّلت ضحكتها إلى ابتسامة باهتة ودمعة تكوَّنت في مدامعها، وهمست بصوت مضطرب: نعم.. فنحن سعداء معًا.

شعرت بغلطتي وكم كنت قاسية معها بسؤالي الذي كنت أعلم إجابته مسبقًا، فصندوق الرسائل المكتظ والرسالة التي قرأتها يجيبان عليَّ بوضوح، هذا إن كانت زوجة علاوي حقًّا. شعرت بالندم؛ فقد وقعت العلياء في نفسي.. حاولت تخفيف حدة الأمر في نفسها... فقلت مازحة: حسنًا ما هذا السؤال؟ كيف لرجل ألا يحب هذا الجمال! فهو محظوظ بك.. وهذه الساحرة الصغيرة ستقيم الأرض بسحرها عندما يكتمل نضجها.

ابتسمت لي وتناولت مني الريم وهمست هاتها عنكِ وأجلستها في عربتها، وقالت: يبدو أنها أحبتكِ.. فهي لا تسمح لغيري بحملها حتى مربيتها لم تستلطفها...

أجبتها باسمة: وأنا سقطت فيها كليًّا منذ الالتفاتة الأولى.

- نعم أعلم هذا... ها هو ولد عمك قد أتى.

- آها حسنًا. هل أحضرت التذاكر يا ناصر؟

- نعم.. هيا لندخل فالفيلم لم يبدأ بعد، سأحضر لكما الفشار والماء، هل تريدان شيئًا آخر؟

سألت العلياء: أي نوع من المشروبات تفضلين.

قالت بيبسي، وأنا طلبت عصير رمان، قال: حسنًا تفضلا أنتما بالدخول وأنا سأذهب لأحضر المشروبات.

دخلنا معًا حتى وصلنا الكراسي وجلسنا بها، الجو العام جعل الريم تغفو في عربتها. الفيلم من نوع الأفلام الاجتماعية الرمانسية التي أفضلها.. جاء ناصر سريعًا وجلس بجانبي، لم يطل الوقت حتى بدأ العرض، الموسيقا هادئة جميلة تثير في نفسك الكثير من الأحاسيس والشجن، يحكي الفيلم قصة عاشقين التقيا على نهر السين بفرنسا بين شاب جزائري وفتاة فرنسية يعشقها فرنسي يصنع الكثير من الحيل ليفرقهما ويفوز بها...

اندمجنا مع الفيلم الذي انتفضت له قلوبنا وأثار مشاعرنا جميعًا، توقف الفيلم لاستراحة، كانت الريم ما زالت نائمة.. عندما تعالى رنين هاتف العلياء الذي وضعته على وضعية الصامت سريعًا حتى لا توقظ ابنتها واستأذنت لترد عليه...

ذهبت خارج باب القاعة عندما استغل ناصر الفرصة ليسألني: هل تعرفينها سابقًا؟ ابتسمت له متهكِّمة من سخرية القدر بي، وقلت نعم أظن أني أعرفها جيدًا وإن كانت هذه هي مرتي الأولى التي ألتقيها ولو علمت من أنا لقتلتني ربما...

لم يفهم ناصر شيء من حديثي له، وقال: قتلتك لماذا هل أنتِ مجنونة؟ لم أفهم منك شيئًا هل تعرفينها أم لا؟

أجبته: لا تشغل بالك إنها مرّتي الأولى التي ألتقيها فيها، لكن هذه الصغيرة التي أمامك ربما تكون هي من تحاول أن أكون أمها، اخترت اسمها وملامحها قبل سنوات من قدومها لهذا العالم... اخترت لون عينيها وانحناءة حاجبيها ورسمة شفتيها ولون شعرها وخديها، حتى اسمها كنت أعلم به قبل أن تعلم به من حملتها في أحشائها، أخطأت في شيء واحد فقط، اسم أمها...

كان ناصر ينظر لي نظرة أبله لا يفهم شيئًا من هذياني... عندما قطع صمته بجملة متهكمة: لم أكن أعلم أنك عرافة يا ابنة عمي...

تعالى صوت ضحكاتي.. وقلت له: توخَّ الحذر الآن فأنا أقرأ أفكارك.

فضحك متهكمًا وقال: حسنًا.. سأفعل. وصمت كلانا حين وجدت الأسئلة طريقها إلى رأسي، فهمست في نفسي: ما هذه الحياة التي تلهو بنا كدمى الماريونيت، تجعلنا نلتقي بأشخاص يصبحون هم كل آمالنا، نحلم معهم ونخطط لمستقبلنا معهم ونرسم خططنا في مواجهة الحياة معهم حتى نشعر أننا خُلقنا من أجلهم أو هم خلقوا من أجلنا ثم تُفرقنا عنهم وتتركنا عراة ضائعين بدونهم... وعندما نعتاد الفراق ونتخطاهم تعيد جمعنا بهم ولا تضيّع فرصة لتعيدنا لعذاباتنا من جديد، تضعنا أمام أحلامنا التى طالما خططنا لها ورسمناها معهم وقد أصبحت ملكًا لشخص آخر هي كل حياته. لم أفهم أبدًا ما الحكمة من هذا!؟ لماذا تختار الحياة دائمًا الحلول الأكثر إيلامًا لنا!؟

أنهت العلياء مكالمتها حين أتت مقاطعة حوار نفسي بسؤالها: فيمَ شردتِ؟

ابتسمت لها وأجبتها: في قصة الفيلم.

- هل أعجبتكِ؟

- نعم كثيرًا جدًّا.

- يبدو أنكِ تفضِّلين هذا النوع من الأفلام.

- نعم أحبه كثيرًا، غير أنه يثير في نفسى كآبة غير معهودة.

- معكِ حق.. وأنا أيضًا أحبه ويصيبني بالحزن، لكن النهايات السعيدة سرعان ما تبدد هذا الحزن وتستبدل به الفرحة الغامرة.

ابتسمت لها بلطف وسألتها: هل حقًّا تظنين أن هناك نهاية سعيدة في الحياة؟

قالت: نعم.. هذه الريم أقوى برهان على ذلك.

- لكل القصص وجهان يا العلياء.

قالت: ماذا تقصدين!؟

قلت لها: أترين هذا الفيلم، جميع من في القاعة هنا ينتظر أن يلتقي البطل والبطلة، ومتعاطف كليًّا معهما ويكنُّ مشاعر الكُره لهذا الشاب الفرنسي الذي يحاول أن يفرقهما بمكره... لكن إن أردتي أن تري الجانب الآخر ففي صدر هذا الشاب الفرنسي قلبٌ منفطِر

يتخبَّط لاستمالة حبيبته له، وإن كان قد أساء وسيلة الدفاع عن حبه إلا أن الحقيقة التي لا يغفلها أحد أنه عاشق منفطر القلب، وكل ما يفعله هو محاولات يائسة لقلب شارَف على الموت يشهق شهقاته الأخيرة أملًا في النجاة... هذا هو ما عنيته بالجانب الآخر.

- حسنًا يا الياسمين قد بدأ الفيلم، دعينا نتابع ومن ثم نحلِّل.

اكتفيت بابتسامة للرد عليها وتابعنا الجزء الأخير من الفيلم الذي انتصر للعاشقين وانتهى بموت هذا العاشق الفرنسي سيئ الحظ الذي وضعه قدره في قصة جعلت منه الشرير الذي لا يحظى بتعاطف أحد رغم كونه أكثر من يستحق الشفقة.

خرجنا من الفيلم جميعًا وتشاورنا حول تناول العشاء، اقترحت العلياء علينا مطعمًا إيطاليًّا في الطابق الأخير يقدم بيتزا لذيذة جدًّا، وافقنا جميعًا وذهبنا للمطعم. اخترنا طاولة في ركن هادئ، كان هناك صوت عزف على بيانو يتسرَّب إلى آذاننا رقيقًا هادئًا. أعجبني الطقس العام بالمكان كثيرا فهو هادئ راقي وهناك مساحات لا بأس بها بين الطاولات تمنحك خصوصية، كما أن الإطلالة من الأعلى تجعلك ترى القاهرة كلها... أثنيت على المكان ومدحت للعلياء ذوقها، فهو مكان رائع جدًّا بغض النظر عن جودة الطعام، حتى قالت: في الحقيقة إنه ليس ذوقي إنه زوجي يعرف هذا المكان وأحضرني له مرة من قبل أعجبني المكان كثيرًا وطعامهم لذيذ للغاية.

ابتسمت لها برقة وأجبتها: إذًا فلزوجك ذوق راقٍ للغاية. بادلتني الابتسامة وردت بثقة ونبرة بها الكثير من الندية: أعلم هذا.

طلبنا الطعام وجلسنا نثرثر حول جودته والمكونات وسر نكهته، ولماذا لا تكون البيتزا التي نحضِّرها في المنزل بتلك النكهة الرائعة. تناولت العلياء البيتزا بيديها، أرخيت رأسي للأمام ناظرة إلى طبقي حين طفت ابتسامة كادت تتحوَّل إلى ضحكة صاخبة لولا كتماني لها؛ فقد أعادت إلى نفسي ذكرى حادث المطعم مع علاوي.. تأوهت بصوت مرتفع فسألتني العلياء عن سر آهاتي، قلت فقط عضضت لساني. أرادت دمعة أن تسقط مني لكني سرعان ما تداركتها.

انتهيت من الطعام لكني بقيت ممسكة بشوكتي أختار كل فترة قطعة زيتون أو فلفل لأضعها في فمي حتى تنهي العلياء طعامها؛ فلم يكن من اللائق أن أنهي طعامي بتلك السرعة فهي لا تعلم مشكلتي مع الطعام. شارفت العلياء على إنهاء طعامها حينها وضعت شوكتي وأثنيت على الطعام، سألتني إن كان الطعام لم يعجبني فلم آكل سوى القليل، تحججت بالحمية الغذائية وأن لا أسرف في تناول هذا النوع من الطعام خوفًا من السمنة.

ضحكت وقالت: حسنًا علَّها تكون هذه هي الفائدة الوحيدة لأن تملكي جسدًا نحيفًا...

ضحكنا جميعًا، وسألت ناصر إن كان قد أعجبه الطعام، قال نعم أعجبني كثيرًا ألا تريني قد أنهيت طبقي كاملًا!

- حسنًا أشكركما جدًّا على رفقتكما لي، وأعتذر منكما جدًّا إن كنت قد تطفلت عليكما وانتهكت خصوصيتكما؛ فأنا أشعر بالوحدة كثيرًا هنا ولا أعرف أحدًا؛ فما زلت جديدة لم أكوِّن علاقات بعد.

أجابها ناصر بلطف: أنتِ من أنقذني من الياسمين وهلوساتها.

ضحكنا جميعًا وقالت: حسنًا أنا سأذهب الآن فقد أرسل لي زوجي السائق وسنبقى على اتصال يا الياسمين.

أجبتها: إن شاء الله. ووقفت لتوديعها، قبلتها وقبَّلت الريم وهمست في أذنها أخبري أباكِ أنك التقيتِ من زرعكِ في رحم أحلامها قبل أن يزرع بذرتك في رحم أمك بسنوات.

انصرفت العلياء والريم وذهب ناصر معهما لتوصيلهما، وجلست أنا وحيدة إلى الطاولة أبكي كما الأطفال، أحاول الحفاظ على رباطة جأشي وإخماد الحزن في جوفي، لكن كيف لي أن أستطيع منع دموعي من مغادرة محاجرها، فقد هطلت كالمطر، إنها أحلامي أراها أمامي قد أصبحت ملكًا لغيري، الريم ابنة أحلامي وعلاوي زوجي قبلها، أنا النبضة الأولى لقلبه، أنا القُبلة الأولى والشوق الأول، ما زالت يداي تستطيع اقتفاء أثر ندباته التي خلفها بلقائنا الأخير فوق جلدي، رغم شفائي منها منذ سنوات...

لمحت بطرف عيني ناصر قادمًا تجاه الطاولة، أخذت منديلًا بسرعة ومسحت دمعاتي... لكن هذا بالطبع لن يمحوَ أثر البكاء بوجنتي أو عينيَّ؛ فسألني ناصر إن كان قد حدث ما يزعجي!

- لا أبدًا فقط شيء ما دخل عيني جعلني أفركها بقوة.

همس بصوت شبه متردد: حسنًا. وجرَّ كرسيه بقربي ووضع منديلًا على عيني وأخذ ينفخ فيها. ابتسمت له متهكِّمة وقلت: هل تظن أن تلك الحيلة ستنطلي عليَّ! لست طفلة يا ناصر.

- اصمتي فقط سترتاحين قريبًا.

شعرت بالحرج وكأن شخصًا غريبًا اقتحم مساحتي الحميمية فجأة؛ فدفعته بعيدًا عني وهمست بنبرة مرتبكة: يكفي ابتعد فقد تحسنت.

- حسنا لنذهب الآن.

تفقدت هاتفي فإذا بأبي قد اتصل ليطمئن علينا ويسأل عن سر تأخرنا، اتصلت به وأخبرته أننا بخير لكننا ذهبنا للقاهرة والوقت سرقنا، أجابني أبي: أين أنتما الآن؟ قلت له: في المول.

- حسنًا حبيبتي لو احتجتِ المال يمكنك استعمال بطاقتك البنكية. أين ناصر؟ أريد التحدث إليه.

- حسنًا سأعطيه الهاتف. تفضل يا ناصر أبي يريد أن يتحدث معك.

كان صوت أبي يصلني باهتًا لكني أستطيع أن أستبين أنه يوصيه بأن ينتبه لي، أجابه ناصر: لا تخف يا عمي فأنا سائق ماهر، هل تريد أن أحضر لك شيئًا من هنا؟

- لا يا ولدي فقط اهتم بالياسمين وساعدها في إحضار كل ما تريد.

- حسنًا ياعمي مع السلامة، في حفظ الله. وأغلق الخط.

سألني ناصر أين أحب أن أذهب الآن، كنت أريد شراء بعض الكتب هل ستوجد مكتبات تعمل الآن.

- لا أعلم. لكن دعينا نرَ وإن لم نجد، لنأتِ مرة أخرى لاحقًا نحضر ما تريدين. هل من شيء مميز تبحثين عنه أم تريدين شراء بعض الكتب فحسب؟

- لا ما من شيء محدد، لكن لنتفقد صادرات معرض الكتاب لهذا العام علَّني أجد ما يجذبني.

- لا بأس، لكن دعينا نأتِ مرة أخرى، كونك لا تعلمين عن أي شيء تبحثين يجعل المهمة أصعب وتحتاج لوقت أطول.

أومأت برأسي موافقة على الفكرة، وقلت: حسنًا لنذهب الآن.. لكن دعني أشترِ من هذا المحل بعض الحلويات سيحبها أبي وأخواي كثيرًا؛ فقد كانت أمي تعدها لنا.

كان محل حلويات سورية، اشتريت منه ما يكفي الجميع واشتريت بعض الفواكه المحببة لهم وكذلك شوكولا كندر التي على شكل بيضة التي لطالما يتشاجران حول ألعابها. ذهبنا باتجاه السيارة عائدين إلى البيت حين سمعت صافرة الواتس آب تخبرني برسالة جديدة، وضعت الأغراض على الكرسي الخلفي للسيارة وجلست على الكرسي الأمامي أتفقد الهاتف فإذا بها العلياء هي المرسل.. تشكرني مرة أخرى

على صحبتي الطيبة لها اليوم، تعالى خفق قلبي منذ وقعت عينيي على الصورة التى تضعها بملفها الشخصي... فتحتها بأنامل مرتجفة وأخذت أتأملها بعينين دامعتين وقلب منفطر، لم يعد لدي أدنى شك في أنها زوجة علاوي، كانت صورة عائلية تجمع ثلاثتهما هي والريم و... علاوي.

أخذت أكبِّر الصورة أتأمل ملامح عينيه، شفتيه، غرته، لحيته، إنه لم يتغير أبدًا، ما زال كما هو وسيمًا شهيًّا لامعًا كالنجوم كأول مرة التقيته بها، منذ طبع قبلته الأولى على حافة شفتيَّ وهمس: أنت لي. دمعت عيناي فتداركتها سريعًا خشية أن يراني ناصر.

سألتها إن كانت قد وصلت بيتها؟

أجابتني: نعم وصلت منذ قليل.

- كيف حال الريم؟

- بخير.. إنها جالسة معي تلعب بقربي.

وأرسلت لي صورة لها وهي تلعب.

- ما شاء الله، حفظها الله لكِ. سأتصل بكِ إن شاء الله غدًا فالبطارية أوشكت على النفاد.

أجابتني: حسنًا غاليتي. مع قلب أحمر ووجه أصفر يرسل قبلة.

أرسلت لها قلبًا ووجهًا ذا ابتسامة خجلى.

وانطفأ الهاتف.

الفصل الثاني عشر

كنت قد غفوت في السيارة، انتبهت على يد ناصر تهز كتفي لتوقظني. نظرت له فقال: هيا لقد وصلنا أكملي نومك في الداخل. أرخيت رأسي على المقعد للخلف وسألته: هل نمت؟

قال مازحًا: صوت شخيرك غلب نقيق الضفادع.

ابتسمت له وقلت: كم أنت غليظ! أنا لا أصدر أصواتا وأنا نائمة.

قال: في المرة القادمة سأسجِّل لكِ.

- حسنًا ليس هناك من مرة قادمة، لن أذهب معك مجددًا.

- لا لا.. بدوت لي كملاك نائم، كنت بريئة كالأطفال، هادئة وجميلة جدًّا.

- حقًّا!؟

- ألا تعلمين؟

- نعم أعلم. لتحمل معي هذه الأغراض إلى الداخل.

تلفتُّ حولي فإذا بضوء مجلس أبي لا يزال مضيئًا، همست باسمة: يا الله ما زال أبي مستيقظًا.. دعنا نتفقَّده. طرقت الباب طرقة واحدة

ثم فتحته.. فإذا بأبي مستيقظًا يقرأ من مصحفه:

- السلام عليك يا أبي لمَ ما زلت مستيقظًا حتى الآن؟

- وعليكم السلام حبيبتي، وهل أنام قبل أن تصلي وأطمئن عليكِ غاليتي. تعال ياناصر اجلس بجانبي، هل أحسنت لابنة عمك؟

ابتسم ناصر وهو ينظر لي: حاولت قدر جهدي يا عمي فإرضاء الياسمين ليس بالأمر الهين.

ضحك والدي وقال: سامحك الله يا ناصر، الياسمين ليست متطلبة لهذا الحد فمجموعة كتب تكفيها.

- صدقت يا عمي، كنت أمازحك فقط.

- حسنًا يا ولدي اذهب لتستريح الآن ونتحدث غدًا إن شاء الله.

وقام أبي من مجلسه ومد ذراعه آخذًا إياي تحت ذراعه وهو يهمس: تعالي يا ياسمينتي الغالية إلى حضن أبيك. وسألني وهو يحمل الأغراض معي قاصدين الطابق العلوي: هل استمتعتي بوقتك؟

أجبته بثقل روح بدا طاغيًا على نبرتي: نعم يا أبي لقد استمتعت واشتريت كل ما أحتاجه تقريبًا، غير أننا تأخرنا عن موعد المكتبات ووعدني ناصر أن يذهب بي مرة أخرى لشراء الكتب.

- حسنًا يا حبيبتي اذهبي لتستريحي الآن.

دخل هو إلى غرفته وذهبت أنا إلى الحمام لأغتسل، ثم ألقيت

بنفسي على السرير وأنا أفكر في كل ما حدث اليوم.

هل من حكمةٍ خلف هذا الوجود المفاجئ لعلاوي في حياتي مرة أخرى؟ هل يجب عليَّ أن أكون بطلة كل هذه الفوضى؟ لمَ لمْ ينتهِ الأمر عند الوداع الأول؟ لمَ يجب أن يكون هناك لقاءات أخرى وألم آخر!؟ أي فوضى ستحدث الآن يا علاوي، كنت تقول إني حرب تبدد كل سلام، لكني لا أريد أن أكون حربًا ضد العلياء والريم حتى ولو كنت أنت الهدف.. لا أريد أن أضع سلامهما واستقرارهما على المحك.. آه يا علاوي كم كنت قاسيًا معي. ماذا فعلت بك لتفعل كل هذا بي؟ كيف أُخمد بركان الشوق المتفجر بين أضلعي تجاهك؟ كيف أعيد لنفسي السلام؟ من أين خرجت بعد كل هذة السنوات؟

كنت شاردة أهذي في صمت حتى انتبهت على أناملي تزحف في حركة لا إرادية فوق جروح خاصرتي كما لو كان عقلي الباطن يريد تحذيري، يريد أن يذكرني بحجم الألم الذي عانيته بسبب علاوي، بخطورة العودة مجددًا. تذكرت وخْز الشفرة لجلدي فتأوهت متألمة وكأن ذلك يحدث الآن، انتفضت واقفة من سريري وركضت نحو المرآة أتفقد خاصرتي، أتفقد هل من جرحٍ جديد شُق هنا...

دققت النظر إلى تلك النقوش وتفقدتها بأطراف أناملي وأخذت أتأملها وأتسائل: كم كان مؤلمًا وخز تلك الشفرة فوق جلدي! كيف تحمَّلت كل هذا الألم من أجل رجل!؟ كيف هُنت على نفسي!؟

دمعت عينايَ حزنًا، فقد أكمل علاوي طريقة بخطى واثقة، تزوَّج وأنجب وها هو يتقدَّم في عمله ويتوسَّع فيه، لا يبدو أنه قد تضرَّر من شيء، أما أنا فعلى حالي كما تركني: وحيدة حزينة أجتر فتات ذكرياته من حين لآخر لأحيا عليها... لم أُحرز أي تقدم أو نصر، ما زال مغروسًا في أحلامي تفرزه مسامِّي كلما لمحت شيئًا يثير حنيني إليه.. لا أسمح لأحد بالاقتراب مني ولا أستطيع تصور كوني مع غيره كأنما أنا قدس أقداسه، وكأنما هو الناسك الوحيد المسموح له بالتعبد في أرضي، لم أسال نفسي يومًا لمَ ما زلت وحيدة إلى الآن، لمَ لمْ أتزوج أو حتى أسمح لأحد بالتقرب إليَّ ربما يعجبني...

كم هو بغيض شعور العجز هذا عندما أجد أحلامي وأجمل أيام عمري قد سرقا مني وأنا عاجزة كليًّا عن البوح، عاجزة عن لوم أو معاتبة من سرقهما، عاجزة عن الاعتراف أمامها بأن كل ما تملكه هي وتفخر به الآن كان أحلامي يومًا ما...

آه يا علاوي كم بت أؤمن ببؤس الحب في وطننا العربي، إنه أشبه بكابوس مرعب، حالة قاسية جدًّا من الشد والجذب ما بين الرغبة والحرمان التي تخلق أجيالًا من الساديين والمازوشيين، لا أعلم تحديدًا ما الذي جعله هكذا، ما الذي يحوِّله من الشكل الطبيعي لعلاقة ودود بين شخصين إلى علاقة مفزعة تكسر القلوب وتعذب الأرواح، فالبدايات جميعها متشابهة وبسيطة في كل القصص تقريبًا:

شخصان التقيا على هذه الأرض انجذبا لبعضهما، تحول انجذابهما في لحظة لا يعلمانها إلى حب كبير وتعلُّق، تظهر المشكلة عندما يطلُّ عليهما شبح الفراق.. فعلى اختلاف أسبابه وتعددها يبقى ألم الفراق من وجهة نظري أكثر حدة من ألم الموت؛ قد نستطيع قبول فكرة موت حبيب أو غالٍ بالفطرة، لكن فكرة أن من نحبهم وندمن عليهم أصبح لديهم فجأة أسباب للرحيل عنا وفراقنا فكرة لا نستطيع تحمُّلها فهي تشطر القلب نصفين وتعذب الروح، وإن استطعنا تجاوزها تبقي ندبة عميقة جدًّا في القلب تؤلم طوال الوقت، لكننا نتعايش مع الألم ونتكيف معه وتألفه أجسادنا وأرواحنا كأي شيء يحدث لا شعوريًّا فينا كالتنفس مثلًا إلى أن يعود الحبيب المفارق أو يأتي آخر جديد يطرق باب هذا القلب ويحبنا بصدق.

في أثناء ذلك يصطدم بتلك الندبة العميقة فينا فيعيد لنفوسنا صيغة الألم الأولى ويعمل القلب كجهاز المناعة على طرده من خلال اجترار الألم السابق، فتنشط تلك الندبة كخلية سرطانية تدافع عن وجودها بكل طاقتها، تتوحش وتنتشر في كل مكان لا تترك أخضر ولا يابسًا، تصيب أرواحنا بالكامل بالعطب وتخلف قلوبنا هشة متشظية كزجاج مطحون، وينبت داخلنا نفس أخرى غير التي نعرفها نفس حانقة وحاقدة على المجتمع إما أن تلقي بنا في أول شخص يقترب منها

لتشعرنا أننا مرغوبون وبشكل لا شعوري تُسقط على هذا الشخص كل ما حدث معنا في علاقتنا السابقة فنجد أنفسنا نؤذيه بكل ما أوتينا من قوة دون أن نشعر، نعذبه بنفس الطريقة التي تم تعذيبنا بها سابقًا ويقف هذا العاشق الجديد مذهولًا من هول ما يحدث له فاقدًا القدرة على الاستيعاب يتساءل لماذا يحدث له كل ذلك، ما الخطأ الذي ارتكبه يجعله يستحق كل هذا الأذى؟

وهكذا نصنع كائنًا اخر ميتًا على قيد الحياة، سيصب جام ألمه على آخر بريء، ولا ينجو من بؤرة الجحيم تلك إلا من رحم ربي واستطاع تجاوز الأمر -وهم قلة- لهذا نجد أجيالًا كاملة كافرة بالحب، كافرة بالمشاعر، كافرة بالمجتمعات، كافرة بالأوطان، كافرة بفكرة الانتماء لشيء أو شخص أو مكان، أجيالًا تتألم وتتأذى دون معرفة السبب، ولا أحد يستطيع معرفة من بدأ سلسة العنف والإرهاب النفسي تلك، من أول ضحية.. كأنها دائرة مفرغة لا بداية ولا نهاية لها الكل فيها ظالم ومظلوم... بطريقةٍ ما المنتصر والمهزوم ضحايا، الكل فيها يتألم وها هي أنا وعلاوي والعلياء الكل يملك جرحه، الكل يعاني بطريقةٍ ما... أتمنى فقط أن يقف الأمر عند ثلاثتنا وألا يطال شخصًا آخر.

عدت مرة أخرى إلى السرير أحاول النوم، أرخيت جسدي وأغمضت عيناي واستسلمت للنوم. استيقظت متأخرة على غير عادتي فقد كانت ليلتي السابقة طويلة للغاية، تفقدت هاتفي لأعرف كم الساعة

فإذا بالعلياء قد بعثت لي رسالة على الواتس آب، لم أشأ فتحها وتجاهلتها، فضلت عدم قراءتها إلى أن أستطيع الرد عليها حتى لا تسيء فهم الأمر.. نظرت من النافذه أتفقد ناصر.. لم أجده، وبصراحة لم أكن أعلم لماذا أتفقده! أنا لا أريد منه شيئًا، هممت بالدخول عندما قاطعني صوته يأتي من خلف الستار: تبحثين عني؟

أجبته ببرود متعمد: ولماذا أبحث عنك؟ لا أحتاج خدماتك الآن.

- قد تكونين مفتقدة صحبتي على سبيل المثال...

- لا لم أفتقدك فأنت كعفريت العلبة أينما ذهبت أجدك أمامي.

ابتسم لي ناصر وقال حسنًا: لا بأس.

خرجت من الغرفة أبحث عن شيء آكله، وجدت الحلويات والفواكه التى أحضرتها أمس بطريقي على طاولة الأكل أخذت قطعة من الحلوى وذهبت إلى المطبخ لأعد قهوتي الصباحية، فإذا بهاتفي يدق... وضعت القهوة على النار وعدت إلى الغرفة أتتبع رنين الهاتف، نظرت إلى شاشته لأعلم من المتصل.. يا إلهي إنها العلياء! ترددت لحظة ثم فتحت الهاتف لأجيبها:

- مرحبًا بالعلياء، كيف حالك؟

- صباح الخير يا الياسمين كيف أصبحتِ؟

- أنا بخير الحمد الله..

- كيف حالك وحال الريم؟

- نحن بخير نفتقدك كثيرًا. أين تسكنين؟ سأرسل لكِ السيارة لتحضرك، لنجلس سويًّا... أشعر بالوحدة، فكما تعلمين ليس لي علاقة بأحد هنا.

أجبتها بتعجب وتردد مفتعل: أنا أعيش خارج القاهرة.

تأففت وهمست: حقًّا! لم أكن أعلم.. أين تعيشين؟

- في إحدى القرى التابعة لمحافظة الجيزة.. مسقط رأس أبي.

- حسنًا أرسلي لي الموقع على الواتس آب وسأرسل السائق يحضرك.

- حسنًا. لكن أمهليني بعض الوقت أستأذن أبي فأنا لم أحظى بفرصة أخبره عنك حتى الآن، الأمر ليس بهذه السهولة... لا تسيئي الفهم رجاءً وسأتصل بك لأخبرك بالتفاصيل.

- حسنًا يا الياسمين.. مع السلامة.

- مع السلامة. وأغلقت الهاتف.

أن تحاول الاعتذار لأحد عن أمر لا تريد فعله بحجة أن الظروف لا تسمح أمرٌ مجهد وشاق على من لم يعتد الكذب، هذا يجعلك طوال الوقت تظن أن الشخص الآخر يرى ما في نفسك وأن حججك لا تخفي شيئًا مما تضمره. تذكرت القهوة، هرولت باتجاه المطبخ فإذا بها تغلي، لم يكن لي رغبة في شربها هكذا، سكبتها في حوض المطبخ وأعدت تحضير واحدة جديدة، ووقفت بجانبها حتى طابت، سكبتها في فنجاني

وأخذتها معي، وأنا في طريقى أخذت قطعة أخرى من الحلوى معي...

جلست إلى مكتبي وفتحت اللاب توب وأخذت أمرر عينيَّ فوق صفحات روايتي التى كتبتها عن قصتي مع علاوي... وأفكر فيما سيكون مستقبلًا، مرت بضعة أيام لم ترسل فيها العلياء شيئًا ولم أتصل بها، وبصراحة كان عدم اتصالها يشعرني بالراحة، ظننت أن الأمر انتهى حتى ذلك الصباح الذي سمعت فيه صوت ناصر يتسرب لأذني من النافذة.

أزحت الستار وأجبته: ماذا؟

- هل تودين الخروج اليوم؟

- لا فأنا مرهقة، ولم أستيقظ إلا منذ قليل.

- حسنًا... كنت سأخرج على أي حال ففكرت ربما تريدين إحضار الكتب التي أردت شراءها..

- اممم حسنًا ما دام في الأمر كتبًا فسآتي معك.

- إذا استعدي وسنذهب بعد قليل.

اتصلت بأبي أخبره برغبتي في الذهاب مع ناصر لشراء بعض الكتب، أجابني: لا بأس يا حبيتي فقط لا تتأخري.

أغلقت اللاب توب، وأنهيت قهوتي وارتديت ملابسي وخرجت،

مررت بأبي في مجلسه، تكوَّرت بجانبه وسألته إن كان قد سمع صوت ناصر يناديني، قال: لا يا حبيبتي. ولا أعرف ما الذي قد جعلني فجأة أسأل عن صلة القرابة التي تربط ناصر بنا...

ابتسم أبي، وقال: الأمر معقد بعض الشيء، لكن ناصر لا تربطه قرابة عصب بنا ولكن منحه العيش في هذه القرية حقوق القرابة...

- ما الذي تعنيه يا أبي؟

- لقد أتى جدًّا ناصر مع أحد الباشوات الأتراك الذي كان يملك هذه القرية في عهد الملكية السابق، وكانا يعملان خادمين لديه ولما سقطت الملكية وعلم هذا الرجل بقوانين الإصلاح الزراعي التي سنَّها عبدالناصر باع الأراضي بثمن بخس لمشايخ البلاد والأثرياء وأعطى لخادميه قطعة من الأرض.. بنيا عليها منزلًا لهما واستوطنا المكان، لا نعلم لهما أصلًا لكن منحهما وجودهما وسطنا لعقود طويلة حقوق القرابة، والقرية كما ترين يا ياسمين جميعنا عائلة واحدة تربطنا صلة دم ورحم ونسب وننحدر من نفس الجد...

سمعنا صوت ناصر ينادي، فأجابه أبي بأن يتفضل بالدخول، ودار بينهما حوار قصير حيث سأله أبي عن حاله وأين سنذهب وألا نتأخر وما إلى ذلك، وأجابه ناصر على أسئلته وطمأنه بأننا لن نتأخر وأعطاه أبي مفتاح سيارته وأخبره أن يتفحصها جيدًا فهي مركونة منذ مدة.

دار ناصر حول السيارة يتفقد الإطارات، فالسيارة كانت مغطاة كليًّا بالتراب ومظهرها العام غير مشجع، قال لي انتبهي لملابسك سنذهب للمغسلة أولًا. لم نستغرق طويلًا حتى وصلنا، ترك لهم السيارة ليغسلوها وجلسنا في كافيه صغير مقابلها.

كان ناصر يثرثر حول حال السيارة وإهمالنا لها وقوة موتورها والسي سي ما إلى ذلك من أمور لا أفقهها، كنت أستمع له وأهز رأسي بالموافقة على كلامه وأخبره أني سأتحدث مع أبي في هذا الأمر.. فجأة سمعنا رنين هاتف تفقد ناصر هاتفه. ليعلم من المتصل ثم استأذن ليجيب على الاتصال ووقف خارج المقهى، بدا لي جادًّا عصبيًّا بعض الشيء غير أني لم أعر الأمر انتباهًا، عاد بعد دقائق وقال هيا لقد انتهت السيارة. لملمت أغراضي وذهبت معه، وانطلقنا.

في طريقنا كنت أتصفح الفيسبوك حين قاطعني ناصر: لم تخبريني ماذا حدث مع صديقة المول!؟

- ذكَّرتني لقد اتصلت بي منذ بضعة أيام تريد إرسال سيارتها لي لأقضي معها بعض الوقت بمنزلها، واعتذرت منها بلطف.

سألني: لمَ لا تتصلين بها فعلى كل حال معنا بعض الوقت، إن كنتِ تريدين لقاءها.

أجبته بتردد: لا أدري، سأفكر في الأمر إلى أن نصل.

- حسنًا سنذهب أولًا لشراء الكتب التى تريدينها، سنذهب لسور الأزبكية فيوجد هناك عدد كبير جدًّا من المكتبات وستجدين أكثر مما تريدين.

وصلنا إلى هناك. كان المكان بالنسبة لي ككنز، استغرقت وقتًا طويلًا وأنا أدقق في الاختيار... لكن النهاية كانت مثمرة؛ فقداشتريت عددًا كبيرًا من الروايات التى أظنها رائعة، حمل ناصر بعض الكتب ووضعها في السيارة.. وهو يتمتم: متى ستقرئين كل هذا.

ابتسمت له وأجبته بنبرة هادئة: الأمر لا يتطلب وقتًا كما تظن، ما إن أجد رواية أندمج معها فلا أتركها حتى أنهيها؛ فمتعة القراءة بالنسبة لي لا تقل عن متعة أكل شيء أحبه، كلاهما يمنحني نفس السعادة.

ابتسم لي ناصر وسألني: أين سنذهب الآن؟ هل ستذهبين لزيارة صديقتك؟ وأردف قائلًا: فأنا لدي عمل هنا ولا أريد أن أدعكِ تنتظرين في السيارة وحيدة قد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا بعض الشيء.

شعرت أني مجبرة على الاتصال بها على غير رغبتي، همست في نفسي: لا بأس ماذا يمكن أن يحدث على كل حال؟

اتصلت بها، لم أنتظر طويلًا حتى أجابتني، أخبرتها أني موجودة الآن في القاهرة وأن ترسل لي العنوان حتى أستطيع أن أصل إليها. قالت سأرسل لك الموقع على الواتس آب. أجبتها: حسنا غاليتي أراكِ بعد

قليل. لم تمر دقيقة حتى انطلقت صافرة الواتس آب، تفقدت الجوال ها هي قد أرسلت العنوان والموقع، أعطيت الهاتف لناصر.. قال: هذا سهل، أستطيع الوصول إليه دون الحاجة للموقع.

- حسنًا هل أنت متأكد؟

- نعم لقد ذهبت إليه سابقًا فقد كان يسكن في تلك المنطقة مالك الشركة التي أعمل بها عندما يأتي إلى مصر فهو يملك قصرًا ضخمًا في هذا المكان، فهذه منطقة فلل وقصور..

همست: قصرًا! ما هذا البذخ!؟ ما الذي قد يجبر شخصًا واحدًا على السكن في قصر فاره؟ ألا يصاب داخله بالوحدة والفزع؟ هل لمجرد كونك تمتلك المال لشراء قصر يجعل من عيشك فيه ضرورة؟ ثم متى انتقلت إليه هذه أظن أنها أخبرتني أنها تعيش في فندق أم أنني خيل لي هذا؟

هززت رأسي محاولة طرد الأفكار منها.. وقلت: حسنًا أرجو ألا تضيعنا فقط.

الفصل الثالث عشر

انطلق ناصر بالسيارة وأغمضت عيني ووضعت سماعات الهاتف في أذني وأرخيت رأسي للخلف مندمجة مع أغنية لفيروز، مرَّ وقتٌ لا بأس به حتى توقفت السيارة، فتحت عيني فإذا نحن واقفان أمام بوابة عظيمة لقصر فخم اسمه العلياء.

قال ناصر هذا هو القصر يا الياسمين تفضلي بالدخول، أطلق ناصر بوق السيارة فانفتح باب القصر وخرج حارس البوابة أخبرته أن العلياء تنتظرني، قال حسنًا تفضلى بالدخول.

مشيت في ممر طويل محاط بالشجيرات المرسومة بإتقان على كلا جانبيه حتى وصلت الباب الداخلي، كان هناك عاملة فلبينية أمام الباب، أخبرتها أن لدي موعدًا مع السيدة، دلتني على الصالون. جلست في انتظار العلياء، قدمت لي الخادمة نوعًا من الشوكولا الإيطالية المرَّة المفضلة لديَّ، كنت أحب هذا النوع كثيرًا، أهداني علاوي علبة من هذا النوع سابقًا، اخترت قطعة وضعتها مباشرة في فمي وهمست كيف علمت العلياء أني أفضل هذا النوع؟ هل لها نفس الذوق أم أنها مصادفة؟ طردت الأفكار من رأسي سريعًا وانتبهت للخادمة وهي

تقدَّم لي فنجانًا من القهوة العربية تناولته منها وانصرفت، دُرت بعيني في المكان، حين لمحت العلياء قادمة من الطابق العلوي. لم أحب انتظاري، وتساءلت لمَ لمْ تكن في استقبالي إن كانت حقًّا تعتبرنا أصدقاء! جاءت العلياء جادة عابثة مختلفة كليًّا عن تلك السيدة التي التقيتها في السوق، سلمت عليَّ وجلست على كرسي ليس بالقريب، سألتها عن حالها وكيف كان يومها، أجابتني ساخرة: كل شيء بخير، الآن فقط أصبح كل شيء بخير.

كنت أستغرب كلامها ونبرة صوتها المتحدية مما جعلني أسألها:

- هل هناك ما يزعجكِ؟

- أجل لطالما كنت أنتِ من تزعجيني، لطالما سمعت اسمك يتردد في سريري، لطالما سرقتِ سعادتي وجعلتِ من حياتي جحيمًا، لطالما كنت كسورٍ ضخم يقف بيني وبينه، كنت كالكابوس الذي لا يفارقني عليَّ أن أمرَّ بك كل ليلة، كان شبحك في كل مكان كنتِ تعربشين فوق الرفوف تنبتين من الشراشف والأغطية، جعلتِ مني غريبة في بيتي، سرقتِ حلمي، حبي، زوجي حتى اسم ابنتي اخترتِه أنتِ، كنت أشم رائحتك تنبثق من مسامِّ جلده، من خطوط يده وهو بين أضلعى، بحثت عنك في كل مكان، لم أترك صغيرة ولا كبيرة إلا فعلتها لأصل إليكِ، كان يخفيك كمن يخفي كنزه الثمين. أعدَّ غرفة خصيصًا لكِ، لكِ وحدك لذكرياتك معه ليحتفظ فيها بكل شيء يخصك، كل شيء مهما كان

صغيرًا، منديلًا استعملتِه وتركتِ عليه بقايا من حمرة شفتيكِ بعد الأكل، فلتر سيجارة دخنتها وما زال أثر أناملك منحوتًا فوقها بإتقان، شعرة فقدتها على كتفه إثر ضمة، غلاف لقطعة شوكولا كرمشته أناملك، هاتف قديم يحمل صورة لكما معًا وبعض الرسائل النصية، عطرك الذي يملأ به الغرفة، الأثواب التى التقاكِ فيها والذي يخشى أن تتبدد رائحة جسدك من عليها والتي يحتفظ بها في دولابٍ مغلق، حتى هذا الخاتم الماسي الذي يحمل اسمك واسمه والذي صمم خصيصًا لكِ.. أظن أنه لو كان يستطيع الاحتفاظ بأنفاسك قربه ولمساتك له في زجاجات لما توانى عن فعل ذلك أبدًا.

كان يفضِّل الجلوس في غرفتك التى لا يوجد فيها سوى طيفك أكثر من جلوسه معي أنا وابنته، كنت تسكنين غرفة محرَّم عليَّ الاقتراب منها في منزلي، يجلس فيها زوجي بالساعات يناجيكِ ويكتب لكِ ويجترك خياله كل ليلة، لم تتركي لي منه الفُتات حتى، كم هم أغبياء هؤلاء الرجال يظنون أن المرأة لا تستطيع الشعور بما يدور في جوفهم، يظنون أنهم يجيدون التمثيل، لم يعلموا يومًا أننا من نجيد التمثيل، وأننا نرى ما يضمرون بوضوح لكننا نخفي حقدنا في نفوسنا ونوهمهم أننا غبيات ونصدق كذبهم، لم يكن الأمر صعبًا أبدًا أن أدرك وجودك، لكن كان عليَّ التخطيط لأعرف من أنتي؟ كيف أصل إليكِ؟ حتى تلك الليلة التي نفذت فيها خطتي، كان الوقت منتصف الليل وكنت معتادة على النوم مبكرًا أو هكذا كان يظن علاوي وعندما عاد

دخل إلى الغرفة يتفقدنا فلمَّا وجدنا نائمتين انصرف في هدوء وتسلَّل إلى غرفتك، انتظرت حتى سمعت صوت الباب ينغلق واتصلت بأخي الذي كنت قد رتبت الأمر كله معه سابقًا بأن يُحدث حريقًا بسيطًا في الشركة ويتصل على علاوي يخبره بالأمر، انتظر أخي قليلًا ثم اتصل به ليخبره بالأمر وخرج علاوي مسرعًا دون أن يغلق باب الغرفة.

عندها تسللت إلى الغرفة وأخذت أبحث عن أي شيء يدلني عليكِ وجدت أولًا الرسائل على المنتدى الذي كان لا يزال يعمل، يبدو أنه كان يكتب لكِ حين قاطعه أخي بالاتصال. شاهدت الرسائل التي يكتبها لك كل ليلة لا تستطعين تخيل كم أصابني الأمر بالحسرة لكن المنتدى لم يدلني عليكِ.

لفت انتباهي الهواتف القديمة تفقدتها فإذا بها تعمل وبطاريتها ممتلئة شاهدت صورك معه ووجدت رقم هاتف سعوديًّا مسجلًا على أحد الجولات باسم حبيبتي الياسمين، أخذت الرقم ومررت عيني في الغرفة كل شيء كان مرتبًا بدقة وإتقان: الشعرة، الفلتر، المنديل، الخاتم... كل شيء موضوع في علب كريستالية منقوش عليها اسمك، دق الهاتف فإذا بأخي يخبرني أن علاوي عائد للمنزل فتركتُ كلَّ شيء على حاله وخرجت عائدة إلى غرفتي...

في الصباح أعطيت الرقم لموظف العلاقات العامة بالشركة وطلبت منه أن يعرف لي اسم صاحب هذا الرقم.. لم يستغرق وقتًا طويلًا لم

يكن الأمر صعبًا -كون أبوكِ من أكبر المهندسين في شركتنا- أن نصل إليكِ ففروع الشركة كلها مرتبطة بنظام إلكتروني متصل يحمل بيانات جميع الموظفين وعائلاتهم المؤمن عليهم لدينا، علمت بعدها أن والدك قد ترك العمل وعدتم للاستقرار في مصر بشكل نهائي منذ أكثر من عام، عندها كان يجب أن أرسل من ينقل لي أخبارك، لم يكن هناك خيار أفضل من ناصر موظف حسابات مختلِس توسَّط له أبوكِ للعمل لدينا، أخبرته أن ينزل إلى مصر وينقل لي أخباركم كلها وفي المقابل سوف يتقاضى أجره كاملًا مع مكافأة قيمة والتستُّر على أمره، وافق بدون تفكير، ونزل إلى مصر وبدأ يتودد إلى أبيكِ ليثق به أولًا ثم إليكِ، لم يكن الأمر صعبًا فأنا لم أكن أحتاج أكثر من ثقة عائلتكم به.

وبالفعل حدث ذلك وسهل أبوكِ عليَّ الأمر كثيرًا عندما طلب من ناصر أن يرافقك للتسوق، عندما صعدتِ إلى الأعلى وأخذ ناصر مفتاح السيارة وذهب بحجة تعديل مظهره واتصل بي وأخبرني أنه سيقنعك بالذهاب للقاهرة وسوف يبلغني بالمكان تحديدًا، دار حوار بينكما وأخبرك أنه سيذهب معك إلى المول، وفي غفلة منكِ أرسل لى رسالة على الواتس بالمكان الذي اتفقتما عليه، وصلت قبلكما بحوالي ربع ساعة، وما إن وصلتما وأبلغني بمكان جلوسكما حتى أخبرته أنني سأفعل أي شيء لكي أتعرف عليكِ، عليه أن يوافيني بأماكن وجودكما،

بصراحة خلت أن الأمر سيكون صعبًا. لم يكن من المخطط

إعجابك بالريم وانجذابك لها لكن عندما فكرت في إحضارها معي خلت أن الأمر سبجعلك أكثر اطمئنانًا لي، سهَّلتِ عليَّ كل شيء عندما أعجبتِ بالريم وأعفيتني من عناء الافتعال لأتعرف عليكِ لم يكن عليَّ أكثر من الوجود معكِ في نفس الأماكن التي ستوجدين فيها لا أكثر. وبالفعل هذا ما حدث.

- لم أكن من الغباء لأدرك أن قدومي إلى هنا اليوم هو أيضًا خطة مرسومة ساعدك فيها ناصر أيضًا، فقد أرسلتِه لإقناعي عندما رفضت فكرة إرسالك للسائق ليحضرني إلى هنا... أليس كذلك؟

- نعم هو كذلك، غير أن عدم شرائك كل ما تريدين في ذلك اليوم ووجودي معك لوقت متأخر كان مخططًا له حتى تضطري للعودة مرة أخرى سواء اليوم أو غيره.. لكن نسيت شيئًا واحدًا خفت بعده من أن تتراجعي؛ لذلك كان علي أن أعجل بالأمر: صورة علاوي على الواتس آب التي أكدت لك من أنا.

- حسنًا يا العلياء وها قد نجحت خطتك... وها أنا أقف أمامك لست خيالًا ولا وهمًا فماذا أنتِ فاعلة؟ ما الذي استفديه من كل هذا التخطيط؟ عمَّ كنت تبحثين عندي؟ أنا لم أتواصل معه من يوم أخبرني بشأن زواجه منك ولم أفعل شيئًا واحدًا لاستعادته، عشت حياة أصعب من تلك التي عشتِها بكثير جدًّا..

انهار جسدي ودخلت مصحًّا نفسيًّا وفقدت الثقة بالناس وتحولت لشبح أنثى، إن حالى لم يكن أبدًا أفضل منك أو منه... ثلاثتنا نال نصيبه من الألم، من الوجع والعذاب فعلامَ تكلَّفتِ كل هذا العناء؟! لتعاقبيني على ذنبٍ لم أقترفه أصلًا! أترين كم هذه الجروح وكم تركت على خاصرتي من تشوُّه؟ كنت أعاقب نفسي بها قبل أن تقرري أنتِ عقابي بكثير، هل ما زلت تظنين أني أستحق العقاب بعد كل هذا؟!

- كم أحقد عليكِ يا الياسمين، كيف جعلتِه يحبك لهذا الحد؟

- لا تلوِّثي قلبك بالحقد، وانظري حولك جيدًا لقد سرقتِ أحلامي كلها، علاوي هو زوجك أنت، والريم ابنتك أنتِ، والقصور والرفاهية وكل شيء يملكه علاوي هو لك أنت، وإن كان يمنح ذكرياتي معه ساعة أو ساعتين الآن من وقته فسيأتي عليه يوم ويتوقف عن تلك العادة، سينساني ولن أبقى سوى ذكرى لحبه الأول، وأنا أعدك ألا أجعله يقترب منى خطوة... صدقيني.

- إن كنت صادقة فعليكِ أن تساعديني في تحطيم تمثالك داخله، عليك أن تجعليه يكرهكِ، يكسر قلبي كوني عاجزة كليًّا أمامك، لن أقبل بهذه الهزيمة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. وماذا عليَّ أن أفعل!؟

ضحكت بسخرية: ومن قال إني سأنتظرك تفعلين، هل تظنين أني حمقاء؟ أنت لن تفعلى شيئًا أنا من سيفعل كل شيء، سيعمل

المخدر الموضوع بالشوكولا التي قدمَّتها لك الخادمة عما قريب وبعدها سآخذك إلى الفندق وسأضعك في حضن أحدهم هناك وأصور لك فيديو شهيًّا للغاية لن ينساه علاوي، وعليك أن تتخيلي كيف سيراكِ علاوي عندما يرى حبيبته التي يقدِّسها في فديو بين أحضان رجل آخر في غرفة بفندق.

همست وأنا أتساقط: لا تفعلى بي هذا يا العلياء.. أستحلفك بالله.

وسقطت أرضًا ما بين اليقظة والنوم، كنت أشعر بهم وهم يجروني إلى السيارة، سمعت العلياء وهي تأمرهم بالذهاب بي إلى الفندق، لكني عاجزة كليًّا عن الحركة عن النطق عن إبداء أي ردة فعل.. أصابني المخدر بشلل كلي.

بعد ذلك فقدت الوعي كليًّا، استيقظت لأجدني وحيدة على سرير في غرفة منفصلة في مشفى أسمع به صفير بعض الأجهزة خلفي، أكاد لا أشعر بشيء حولي، لا أستطيع التحكم في أطرافي ولا أستطيع الكلام. يا إلهي أين أنا؟! ماذا حدث لي؟ كيف أتيت إلى هنا؟ يداي لا تطاوعاني...

بعد برهة أتى طبيب وممرضة يفحصاني، ويتناقشان حول حالتي، حين سمعت الطبيب يقول: سوف تتحسَّن عما قريب.. يبدو أنها عنيدة جدًّا ومتمسكة بالحياة؛ كمية المخدر التي تناولتها كافية لقتلها. وأردف قائلًا: أخبري ذلك الرجل المسن في الخارج أنه يستطيع الدخول

للاطمئنان عليها الآن لبضع دقائق فقط، فهو هنا منذ ثلاثة أيام من يوم دخولها المشفى يرفض المغادرة، كذلك الشيخ علاوي اتصلي به وأخبريه أنها قد استعادت وعيها فهو قلق عليها للغاية. وانصرف الطبيب والممرضة.

ماذا؟! علاوي يعلم بأمري؟! بينما كانت الأسئلة تشق لها نفقًا في رأسي لتطفو منه، فتح الباب ودخل منه رجل أبيض اللحية بدا لي نحيفًا بعض الشيء، همست في نفسي يا إلهي إنه أبي! كيف علم بالأمر؟! لم أملك الوقت للحديث معه عن أي شيء كيف علم!؟ يومًا ما سيموت هذا الرجل بسبب حماقاتي التي لا تنتهي.

أتى باكي العينين يقبِّل جبيني ويشدُّ على يدي ويهمس في أذني: ستكونين بخير إن شاء الله، لا تخافي يا غاليتي...

أتت الممرضة تستأذنه في الخروج من الغرفة فالإجهاد غير مناسب لي، خرج أبي باكيًا حزينًا، كان حزنه كحدِّ السيف في جوفي. غبت بعدها في نوم عميق حتى شعرت بأنامل رقيقة أعرف ملمسها جيدًا تخطو بخفة فوق جبيني، وصوت هادئ يهمس في أذني: لا تخافي يا حبيبتي لن يمسَّك سوء ما حييت. فتحت عيناي فإذا بعلاوي جالس بجواري ممسك بكفي ومنكفئ فوق رأسي، أدرت عينيَّ في وجهه بدقة أتفحصه ربما أكون مخطئة، لكن ما من خطأ، كان هو.. هو من يقف بجانبي من يهمس في أذني، دمعت عيناي، فقبل كلتا عينيَّ وضمَّني إلى صدره وبكى، وأخذ يهمس:

آآه يا الياسمين.. كيف وصلنا إلى هنا؟ ليت الأيام تعود وكان حظي من هذه الدنيا فقط أنت، ليتني أخذتك وهربت بك إلى آخر العالم وتركت كل شيء خلفي، لكني والله خشيت عليكِ ما أنت فيه الآن، خشيت أن يطالك شرهم، تحمَّلت فراقك خوفًا عليكِ يا حبيبتي، ما كانت العلياء لتتركني لكِ، ما كانت لتقبل الهزيمة لكني والله لن أدع يديها تطالانك بأذى بعد الآن، كوني واثقة.

وأخذ يبكي كالأطفال، شعرت بيديَّ تتحركان، ضممت كلتيهما على ظهره وهمست، لا أعلم إن كنت أهمس في نفسي أم تسلل صوتي إلى أذنه: اشتقت إليك.

أغمضت عيني على صدره ولم أشعر بشيء بعدها، فهذا أكثر الأماكن التي تمنيت الإقامة فيها في هذا العالم... هنا وطني، هنا يتبدَّد الإحساس بالوحدة والغربة، هنا أتمنى أن أحيا، أتمنى أن أموت.

في الصباح كان أبي جالسًا بقربي في غرفة بها سرير، لا أجهزة غريبة ولا صافرات، يداي تتحركان وقدماي، لم يعد جسدي ثقيلًا كما في السابق. ابتسمت لأبي وهمست: أنا بخير يا حبيبي، لا تخف ولا تحزن. ابتسم لي وأخذ يقول: الحمد لله على سلامتك يا غاليتي الحمد لله.

لم أرَ علاوي مرة أخرى في المشفى بعد هذه المرة، ولا أعلم كيف دخل دون أن يراه أبي.

تعافيت وذهبت مع أبي للبيت وسألته عن ناصر، قال إنه بخير يا

حبيبتي، فقط اضطر للسفر لبضعة أيام لينهي تعاقداته ويعود، فهو من أخبرني أنك في المشفى وقال إنك تعرضتِ لحادث سير بسيط. لم أشأ أن أفضح أمره عند أبي، وتركت الأمور على حالها، حتى ذلك اليوم الذي تلقيت فية اتصالًا هاتفيًّا من علاوي يطمئن عليَّ، أخبرته أني بخير وقد تحسَّنت كثيرًا، سألنى أنه يريد أن يلتقي بي لأمر مهم، أجبته حسنًا لا بأس.

ذهبت إلى أبي أخبره أني أريد الخروج لأمر مهم، عليَّ مراجعة الطبيب بشأنه،

بدا القلق واضحًا على وجهه وأصر على الذهاب معي، فأجبته: لا تقلق يا أبي أنا بخير، إنه أمر نسائي بسيط لن أتأخر، سأكون بخير.

أحضر أبي لي تاكسي وذهبت إلى علاوي. التقينا في إحدى المقاهي القريبة، سألني هل أنت بخير؟ أجبته نعم أنا بخير، لا تقلق.

- أعتذر لك عن كل ما حدث، لم أكن أعلم يومًا أن جنون العلياء وشرها سيطالانك.

- كيف علمت بالأمر؟!

- إنها قصة طويلة. كان ناصر قد أخبرك أنه ذاهب لقضاء بعض الأعمال لكنه في الحقيقه كان واقفًا بسيارته على مقربة من القصر متواريًا في الظلام حتى رأى رجال العلياء يجرونك إلى السيارة تبعهم ناصر بسيارته حتى وصلا إلى الفندق وضعاكِ في كرسي متحرك ودخلا

بك إلى الاستقبال، دخل ناصر خلفكم وسمعهما يتحدثان مع موظف الفندق بأن السيدة العلياء أخبرتهما أن يضعا السيدة في جناحها الخاص إلى أن تعود.. اتصل الموظف بالعلياء وأخبرته بالموافقة ودخل الرجلان بك إلى المصعد عندها لم يجد ناصر حلًّا غير الاتصال بي.

اتصل بي ناصر على رقم الهاتف الخاص بالعمل، فهو يعمل في فرع شركتي بدبي، أخبرني بالقصة كلها، أرسلت رجالي إلى الفندق يبحثون عنك، وذهبت مباشرة إلى العلياء وأخبرتها إن أصابك أذى فسأطلقها وسأنفصل عن الشركة وسأخبر أباها بكل ما فعلته، وسأذهب إلى الشرطة وأتهمها بالخطف وأقدم لهم كل شرائط الكاميرات بالقصر، وبأني سأقتلها حتى إن استوجب الأمر ذلك. وجدك الرجال فاقدة الوعي في جناح العلياء بالفندق، فنوع ونسبة المخدر الذي وضعته كافيان لقتلك، اتصل بي رجالي فأخبرتهم أن يذهبوا بك إلى المشفى الدولي وسألحق بهم. تركت العلياء تفكر في شؤونها وانصرفت قاصدًا المشفى.

بعدها أخبرت ناصر أن يذهب إلى أبيك ويحضره ليطمئن عليك، ولا يقول سوى أنك أُصبتِ في حادث سير... وأخبرت ناصر أن يختفي عن عيون العلياء ورجالها حتى لا يطاله أذاها..

فقدتِ الوعي لمدة ثلاثة أيام بالمشفى، وبعدها استيقظتِ، وها نحن ذا.

نظرت إلى الفراغ متحاشية النظر في عينيْ علاوي، وقلت: العلياء تحبك كثيرًا، هي مريضة بك يا علاوي.

- العلياء لا تفهم الحب يا الياسمين، العلياء قد أعماها كبرياؤها. هي لا تريد أن تكون الخاسرة فقط.

- لكنكَ أردت مقابلتي لسببٍ آخر، ما الامر؟ فيمَ أردت أن تتحدث معي؟

نظر علاوي في عيني مباشرة وقال: هل تتزوجيني يا الياسمين؟ لنتركْ لهم كل شيء ونرحل، أعلم أني تأخرت كثيرًا لكن هل من فرصة أخرى؟

- بعد كل ما حدث يا علاوي! هل تظن أننا نملك فرصة للعودة؟ إن عالمك بغيض للغاية، وأنا بسيطة للغاية لا أستطيع التكيف مع هذا الطقس المليء بالخبث والتآمر، لم أكن أتمنَّى غير العيش معك حياة بسيطة نعمل سويًّا وننجب أطفالنا ونربيهم سويًّا ونكبر سويًّا... كان أكبر أحلامي أن أكبر إلى جانبك في بيت بسيط من طابقين أمامه بعض الأمتار الخضراء من حولنا أبناؤنا وأحفادنا، لكن الحمد لله على ما قدر. كما أني بعد وفاة أمي أصبحت أنا من أرعى أبي وأخويَّ وترْكهم أمر لم يعد ممكن الآن، إن الحياة لم تكن عادلة أبدًا معنا، لطالما تأتي الفرص متأخرة بعد أن يكون أوان تحقيقها قد فات.

ها أنت أمامي حبي وشغفي الأول إدماني وإيماني تعرض عليَّ الزواج، لكن بعد كل ما حدث لم يعد الأمر ممكنًا فلا حياتك تناسبني ولا أنا من تقبل أن تترك أخويها صغيرين وحيدين في عهدة أب مسن وحيد.. كما لو أن قدرنا أن يحمل كلٌّ منا الآخر في جوفه ويمشي في اتجاه مخالف، فلم يكن من المقدر لنا يومًا أن نحيا كعاشقين يجمعنا طريق واحد ومظلة واحدة وكلانا يفكر كيف يبتلع الآخر في قبله..

كان علاوى ينظر لي صامتًا حزينًا بعينين ممتلئتين بالحسرة، نظرة رجل مفلس بائس خسر رهانه الأخير، نظرة رجاء بأن أعيد التفكير.

تركت علاوي في المقهى بعد أن طبعت قبلة وداعٍ صغيرة على جبينه وانصرفت حاملةً إياه داخلي، قاصدة البلدة الصغيرة التي أتيت منها، التى أنتمي إليها...

عدت وحيدة كما أنا.. وجدت أخويَّ يلعبان أمام المنزل، وأبي وحيدًا في مجلسه، سألني عن صحتي.. فابتسمت له وأخبرته أن كل شيء بخير. وضعت رأسي على فخذه وتكوَّرت بجانبه أستمع لتلاوته حتى ابتلعني هذا الشريط الكبير من الأحداث الذي أخذ يعيد عرض نفسه في رأسي حتى فقدتُني هناك...

الفهرس

الفصل الأول ٥

الفصل الثاني ٢١

الفصل الثالث ٣٥

الفصل الرابع ٤٣

الفصل الخامس ٥٩

الفصل السادس ٧٣

الفصل السابع ٩٣

الفصل الثامن ١٠٥

الفصل التاسع ١١٣

الفصل العاشر ١٢٧

الفصل الحادي عشر ١٤٣

الفصل الثاني عشر ١٥٩

الفصل الثالث عشر ١٧٣

شكر

إلى كل من مروا بحياتي

من أحسن منهم ومن أساء..

كل الشكر والتقدير لكم

فلولا مروركم ما كنت أنا ما عليه الآن..

حقوق الطبع محفوظة
© دار الأدهم للنشر والتوزيع

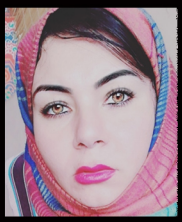

فإذا بملاكٍ بثوب أبيض يطلُّ من العتمة، قمر سقط من السماء فجأة، زهرة برية نادرة نبتت من باطن التربة الصفراء من اللاشيء في تحدٍّ صارخ لقوانين الوجود...

تلعثم لساني، هجرتني اللغة، لم أستطع صياغة كلمة واحدة من الأبجدية كاملة..

جذبني إليه في ضمة تكسَّرت فيها أضلعي بين ذراعيه، وكأن فجوةً ما فُتحت في صدره لتبتلعني.

الأدهم
للنشر والتوزيع